الحزء 4

www.hafryat.com

أحمد بان

باحث مصري

ملف قواعد الفكر الإخواني

31

ازدواجية الخطاب والسلوك

رغم أنّ المدقّق في أدبيات وسلوك الجماعة يدرك جيداً أنّها حالة تنظيمية أكثر منها فكرية، إلّا أنّ التفتيش في أفكار الجماعة يقول الكثير عن سماتها ويفسّر النهج المراوغ الذي اتبعته منذ تأسيسها حتى اليوم.

لعلّ أهم ما وسم الجماعة هو التلازم بين الغموض الفكري والسلوك السياسي والتنظيمي

متلازمة الغموض

لعلّ أهم ما وسم الجماعة هو التلازم بين الغموض الفكري والسلوك السياسي والتنظيمي، الذي يعتمد المناورة والمراوغة والتقية، بما يعزز لدى المراقب الشعور بأنّهما مقصودان لضمان البقاء والانتشار، بصرف النظر عن التأثير السلبي على الهدف الذي ظلّ الإخوان يتحدثون عنه طويلاً، وهو دعم مسيرة التحول الديمقراطي، المهمة التي لم يكونوا يوماً سوى العقبة الكؤود في طريقها بالحال والمقال.

عندما أراد حسن البنا أن يحدد هوية الجماعة الفكرية، كتب في العدد ٣٠ من مجلة «الإخوان المسلمين»، بتاريخ ١٩٣٤/١١/٢٩ أنّها «فكرة جامعة تضم كل المعاني الإصلاحية، فهي دعوة سلفية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، أو جماعة رياضية، ورابطة علمية وثقافية وشركة اقتصادية»، وعندما قرّرت الجماعة الدخول إلى مربع السياسة، وأعلنت ذلك في مؤتمرها العام الخامس العام ١٩٣٨ كتب البنا في افتتاحية مجلة النذير «سننتقل من حيّز الدعوة الخاصة إلى الدعوة العامة أيضاً، ومن دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والأعمال، ولسنا بذلك نخالف خطتنا أو ننحرف عن طريقنا بالتدخل في السياسة، كما يقول الذين لا يعلمون، لكنّنا ننتقل بذلك خطوة ثانية في طريقتنا الإسلامية وخطتنا المحمدية ومنهاجنا القرآني، ولا ذنب لنا أن تكون السياسة جزءاً من الدين، وأن يشمل الإسلام الحاكمين كما يشمل المحكومين».

إطار فضفاض

يُلاحظ هنا أنّ الجماعة تتعمد وضع إطار فضفاض لفكرها يمكّنها من التعاطي مع كل سلطة سياسية، والتعامل مع القوى السياسية الموجودة أيضاً بقدر وافر من الحرية، التي لن يوفرها سوى هذا النهج، بما يجعلها في مأمن من الخضوع لأيّ قيود قانونية أو إدارية، كشأن باقي القوى السياسية، وفي الوقت نفسه يؤمّن لها ذلك جذب كثير من الأتباع في ظلّ تلك الشعارات العريضة التي تستوعب تطلّعات واهتمامات شرائح متعددة.

الابتعاد عن التحديد الصارم للهوية يحقّق تمايز الجماعة ويشبع رغبتها في «الاستعلاء الإيماني» تلك الفكرة التي رسّخها البنا وسيد قطب في نفوس الأعضاء.

يتيح ذلك الخطاب المزدوج للجماعة خيارات في المواجهة مع كلّ نظام سياسي،

الجماعة تتعمد وضع إطار فضفاض لفكرها يمكّنها من التعاطي مع كل سلطة أو قوى سياسية موجودة

ففي حال اشتداد الضغوط عليها وحصارها بحقيقة مشروعها، تلجأ إلى خطاب التمسكن الذي تحاول من خلاله أن تقول إنّها دعوة سلمية تنتهج العمل الديمقراطي، وأنّها إصلاحية معتدلة، وفي حال الشعور بأنّ الضغوط قد خفت، وبدأت في الشعور بالصعود السياسي، أو الحضور الكبير، تتحدث من جديد بخطاب الشمولية لكل مناحي الحياة، بالنسبة إلى الإنسان المسلم، وتردد المقولات الثورية، مطالبة بالتغيير الجذري، طارحة لغة المساومة، أو التفاوض السلمي.

جمع التشدد والاعتدال

لم تتغير لغة الجماعة كثيراً في هذا الشأن، فقد جمعت بين الخطاب العام المتشدد والخاص المعتدل في مقام واحد؛ ففي ١٩٩٥/١/٣١ في الخطاب الذي وجّهه مرشد الجماعة، محمد حامد أبوالنصر، للرئيس المصري الأسبق حسني مبارك، وفي إطار الدفاع عن أهداف الإخوان بعد أن اتهمتهم السلطة، بما يشبه التآمر لقلب نظام الحكم، قال: «إنّ الجماعة تحترم الدستور المصري، وهذا الدستور يكفل للإخوان الحق في ممارسة دورهم في النظام الديمقراطي، دونما قيود، وأنّهم يسعون للسلطة في ظلّ التعددية، دونما تأثيم أو تجريم»، ثم استدرك أبو النصر متحفظاً بالقول: «إلا أنّ الإخوان، رغم كلّ هذا، لا يسعون إلى السلطة، كما أنّ السلطة ليست من هدفهم».

يبدو التناقض واضحاً؛ حيث لا يستقيم وضع العبارتين في خطاب واحد، الجماعة راغبة في السلطة ولا تسعى إليها، وإلا كيف ستحقق هدفها العام الذي تحدّثت عنه، وهو إقامة ما يسمى بالدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، بل هي سلكت كلّ السبل على طريق السعي لهذا الهدف.

لكنّها تبقى أسيرة الشعارات الفضفاضة التي نشأت عليها وسلبت بها عواطف الكثيرين، تخشى الالتزام بقواعد الممارسة الديمقراطية، ولا تكفّ عن ترديد عبارات تؤكد كونها جماعة ذات رسالة عقيدية شاملة، تتوخى تحقيق تغيير جذري شامل في المجتمع، الأمر الذي يصطدم بضرورات الأسلوب المعتدل في التغيير.

تلاعب بالخطاب

هذا الازدواج بين المسار السري والإصلاحي، وما يتطلبه كل فضاء منهما من تدابير ووسائل

رغم تأكيد الإخوان المتكرّر على احترام الدستور إلا أنّهم يريدون تغييره ليكون محققاً للإسلام كما يرونه

وخطاب، هو الذي يعمّق الغموض في فكر الجماعة، وهو الذي يعبّر بوضوح عن أزماتها المتكررة، ويصيبها بالحيرة في صياغة إطار فكري مناسب للواقع ومستجداته، وهو ما يتّضح في الإصرار على استخدام شعار «الإسلام هو الحّل»، الذي تحوّل من شعار انتخابي إلى عنوان فكري، يعني التأكيد على أنّ الطريق الوحيد للإصلاح هو الإسلام، وأنّ جماعة الإخوان التي تمثل الإسلام الصحيح، وأنّها رغم تأكيدها أنّها ليست جماعة المسلمين إلا أنّ كلّ مقولاتها وسلوكها، تؤكد أنّ اعتقادها أنّها جماعة المسلمين التي توصلت إلى التفسير الصحيح للإسلام.

كتب المرشد الخامس للإخوان مصطفى مشهور، في مقال له بجريدة «الشعب»، في ١٩٩٥/٨/٨، في سياق الانتخابات البرلمانية: «الدستور يعطي لكل مواطن حقّ ترشيح نفسه، وأن يرفع الشعار الذي يرى فيه الإصلاح، والإخوان يرون أنّه لا صلاح ولا إصلاح إلا بالإسلام؛ لأنّه من عند الله العليم الخبير بخلقه، وبما ينفعهم ويصلحهم، ولو تبنّى هذا النظام هذا الشعار وحرص على تطبيق الإسلام ما وجد مبرراً لهذا التصعيد بين الإخوان والنظام مع اقتراب انتخابات مجلس الشعب».

رغم تأكيد الإخوان المتكرّر والمستمر على احترام الدستور، وضرورة التزام الجميع به، إلا أنّهم يريدون تغييره ليكون محققاً للإسلام كما يرونه؛ كتب المرشد السادس مأمون الهضيبي، في الجريدة نفسها، في ١٩٩٥/١٠/١٧: «لقد طالب الإخوان، وما يزالون، بتطبيق الشريعة وتجسيد نصّها في الدستور إطاراً يعيش الناس في بحبوحته، وينعمون بوارف ظله، إلا أن الحكومة اتهمتهم بالتطرف والتخلف والعودة إلى القرون الغابرة، والعيش في إطار الماضي، ثم أردفت ذلك باتهامهم بدعم وتأييد العنف والإرهاب».

يبدو واضحاً التلاعب بشقي الخطاب الإخواني العام والمتشدد، الذي يجذب المسلمين، وهو تطبيق الشريعة والخطاب الخاص الذي يسعى للاستفادة من فرص المناخ الديمقراطي، وإذا كانت العبارات السابقة قد وردت في سياق ردود الإخوان على اتهامات أو انتقادات خلال فترة الاحتقان السياسي، العام ١٩٩٥، فهي تشير إلى حرص الإخوان على إثارة قضية مضمونها أنّهم لا يريدون إلا حكم الإسلام وتطبيقه، وأنّ الحكومة تستهدفهم لأنّهم يطالبون بهذا الهدف السامي، البالغ الحساسية، لدى الرأي العام المصري.

لم يطرح الإخوان أبداً برنامجاً سياسياً حقيقياً يمكن تقييمه يترجم شعار «الإسلام هو الحل»

لا برنامج يمكن تقييمه

لـم يطـرح الإخـوان أبـداً برنامجـاً سياسـياً حقيقيـاً، يمكـن تقييمـه يترجم هـذا الشعار، وبقي مـا طرحـوه، سـواء في مبـادرة الإصـلاح السـياسي في ٢٠٠٤، أو برنامـج حـزب الحريـة والعدالـة في ٢٠١٢، إطـاراً فضفاضـاً يتماهـى مـع مفـردات أي حـزب سـياسي عـادي، حـتى إنّ كان هـذا الحـزب هـو الحـزب الوطـني الديمقراطـي الحاكـم، الـذي نسـجت الجماعـة عـلى منوالـه في برنامجهـا، كما لـو كانـت تعلـم أنّهـا سـتكون في الحكـم قريبـاً؛ لـذا تبنـت جـلّ مقـولات هـذا الحـزب وسياساته الاقتصاديـة والاجتماعيـة، دون أيّ تمايـز.

في الموقـف مـن الديمقراطيـة والحريـة، تعمـد الإخـوان الحديـث بلغتـين مختلفتـين أو ترديـد الخطـاب المـزدوج الـذي لا يعـزز سـوى الغمـوض والمراوغـة.

يقـول مصطفـى مشـهور، في مقـال لـه بجريـدة «الشـعب»، بتاريـخ ١٩٩٥/٢/٢٨: «إنّ الحريـة غاليـة ولازمـة لـكلّ إنسـان فيهـا يثبـت وجـوده ويحـقق مطالبـه، وهـي الطريـق إلى العـزة والقوة للأفـراد والشـعوب والأقطـار، والإسـلام يقـرر حـق الإنسـان في الحريـة وفي إطـار دقيـق، ويرفض القهـر والطغيـان والظلـم، ويحـارب الاسـتعباد، ويشـجع عـلى تحريـر العبيـد».

هـذا «الإطـار الدقيـق» الـذي تتـم مـن خلالـه الحريـة في الإسـلام، هـو بيـت القصيـد؛ فرغـم التأكيـدات المتكـررة في أدبيـات الإخـوان، عـلى الحريـات المدنيـة والعامـة، فـإنّ المنطلـق الفكـري الـذي يقـوم عليـه إدراكهـا لمعـنى الحريـة، مختلـف إلى حـدّ كبـير عمـا هـو معـروف في هـذا الفكـر الـذي يزعمـون المطالبـة بتحقيقـه.

فبينمـا قـال هـذا الفكـر إنّ الأصـل في الحريـة هـو الإباحـة، والإيمـان بقـدرة الفـرد عـلى إدراك مصالحـه الحقيقيـة، وبأنّـه خلـق حـراً، ومـا القيـود الـتي توصّـل لهـا الفكـر الإنسـاني إلا لحمايـة هـذه الحريـة الفرديـة وتعزيزهـا، تؤكـد أدبيـات الجماعـة أنّ الأصـل في الحريـة هـو التقييـد، وأنّ الفـرد مطبـوع عـلى الخطـأ والـشرّ، وأنّـه يميـل بطبعـه إلى العبوديـة، سـواء كانـت لإلـه أو لمخلـوق أو لنظـام بـشري، وبينما تعـدّ الحريـة مبـدأ أساسـياً مـن مبـادئ النظـام السـياسي الحديـث، يعتبرهـا الإخـوان مجـرد وسـيلة لخدمـة مبـدأ أكبر وأشـمل لديهـم، هـو إقامـة شرع الله وتحقيـق الإسـلام وفـق رؤيتهـم الـتي تجعلهـم القيّمـين الوحيديـن عـلى هـذه الغايـة.

32

حسن البنا يصنّف الناس برؤية إخوانية

لا يستطيع المراقب أن يتعرف على أفكار جماعة الإخوان الحقيقية، دون أن يقرأ بعناية رسائل حسن البناء المؤسّس والمنظّر الأوحد لأفكارها، ومن بين تلك الرسائل التي كشفت التناقض بين القول والعمل، والشوفينية التي لازمت الجماعة منذ النشأة، تبرز رسالة «دعوتنا» التي كتبها البنا في العام ١٩٣٢ أو ١٩٣٣؛ أي بعد أعوام قليلة من النشأة.

الغموض كان دوماً أساس بقاء الجماعة والسرية أهم المحدّدات التي حافظ عليه تنظيمها الهرميّ

الغموض والسرية

يبدأ حسن البنا رسالة «دعوتنا» بمقدمة عاطفية تنسجم مع مرحلة التمهيد التي لم تخفِ الرغبة في التمكّن والكشف عن الحدية التي تغلّف تصوره، يقول تحت عنوان مصارحة «نحب أن نصارح الناس بغايتنا وأن نجلّي أمامهم منهاجنا، وأن نوجّه إليهم دعوتنا في غير لبس ولا غموض، أضوأ من الشمس وأوضح من فلق الصبح وأبين من غرة النهار».

يمكن ملاحظة الإفراط في استخدام المفردات التي تركّز على الصراحة والوضوح في ثوب البلاغة، في محاولة لنفي تهمة الغموض في أفكار الجماعة وسلوكها وما تدعو إليه منذ نشأتها؛ الغموض الذي كان دوماً الأساس المقصود الذي توسّلت به الجماعة في البقاء، مع السرية التي تبقى أهم المحدّدات التي حافظ على تقاليدها التنظيم الهرميّ، الذي يتم تداول المعلومات فيه عبر حلقة ضيقة جداً ظلت تضيق في التنظيم من الجمعية العمومية إلى الأعضاء إلى المكاتب الإدارية للمحافظات في مصر، إلى مكتب الإرشاد، قبل أن تُختزل فيما يسمى أمانة المكتب التي ضمت خلصاء المرشد ممن لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، ولطالما رفع التنظيميون في قيادة الجماعة شعار المعرفة على قدر الحاجة، في سياق عسكرة التنظيم التي كشفت أننا أمام حالة حزبية صريحة حرص البنا أن ينفيها في رسالته.

تمتد العبارات في نفس السياق؛ فتحت عنوان براءة يقول «ونحب مع هذا أن يعلم قومنا وكل المسلمين قومنا أنّ دعوة الإخوان المسلمين بريئة نزيهة، قد تسامت في نزاهتها حتى جاوزت المطامع الشخصية، واحتقرت المنافع المادية وخلفت وراءها الأهواء والأغراض، ومضت قُدماً في الطريق التي رسمها الحق تبارك وتعالى للداعين إليه».

«يكاد المريب يقول خذوني» مثلٌ يكاد ينطبق على حال البنا مع الكلمات السابقة؛ فهو ينفي مسبقاً اتهام الجماعة بتأكيده أنّها من تمثل الإسلام الصحيح، ويتابع هذا المعنى تحت عنوان «عاطفة»: «ونحب أن يعلم قومنا أنّهم أحبّ إلينا من أنفسنا، وأنّه حبيب إلى هذه النفوس أن تذهب فداء لعزتهم إن كان فيها الفداء، وأن تزهق ثمناً لمجدهم وكرامتهم ودينهم وآمالهم إن كان فيها الغناء»، لكن يشهد سلوك الجماعة أنّها ما ضحّت بشيء إلا في سبيل الحكم، وأنّها

عاطفة الإخوان ظلت نحو الحكم والسيطرة وما أنفقت الجماعة مالاً أو أنفساً إلا في هذا السبيل

عندما خُيّرت بين أمن البلاد واستقرارها في مصر في أعقاب خروج الشعب والمؤسسات عليها في ٣٠ حزيران (يونيو) ٢٠١٣، أو الفوضى والخراب والحرب الأهلية، اختارت بحسم ودون تردد الخيار الثاني.

تصنيف الناس برؤية إخوانية

عاطفة الإخوان ظلت نحو الحكم والسيطرة على العقول والقلوب، وما أنفقت الجماعة مالاً أو أنفساً إلا في هذا السبيل منذ النشأة وحتى اليوم، ونصّبت من نفسها الحاكم على العقائد والأفكار أيضاً، وقرّرت أن يكون الناس في مواجهة ما تطرحه؛ فيكون المؤمنون من ينضمون لها باعتبارهم المجاهدين الذين جمعوا بين العمل والإيمان «فهذا ندعوه أن يبادر بالانضمام إلينا والعمل معنا، حتى يكثر به عدد المجاهدين ويعلو بصوته صوت الداعين، ولا معنى لإيمان لا يتبعه عمل ولا فائدة في عقيدة لا تدفع صاحبها إلى تحقيقها والتضحية في سبيلها».

ويواصل البنا تصنيف الناس بين هذا المؤمن أو المتردد الذي يصفه بأنه «شخص لم يستبن وجه الحق ولم يتعرف في قولنا معنى الإخلاص والفائدة فهو متوقف متردّد».

أما الشخص الثالث في تصنيفهم فهو النفعي الذي يسأل عما سيجنيه من مال أو منفعة، فيجيبه البنا بأنّهم لا يعدونه سوى «بثواب الله إن أخلصت والجنة إن علم الله فيك خيراً»، بينما يردّ على الصنف الرابع الذي سمّاه المتحامل ويصفه بأنّه «شخص ساء فينا ظنه وأحاطت بنا شكوكه وريبه، فهو لا يرانا إلا بالمنظار الأسود القاتم ولا يتحدث عنّا إلا بلسان المتحرّج المتشكّك»، واصفاً ذلك الشخص بالغرور والشك كشأن كل من لا يتبع سبيل الجماعة وفكرها.

يتابع البنا استخدام المفردات الدالة على كنه خطابه الحدي المتعالي على إيمان «الآخرين» ومزكياً إياه لدى أتباعه؛ «والفرق بيننا وبين قومنا في الإيمان أنّه عندهم إيمان مخدّر نائم في نفوسهم لا يريدون أن ينزلوا على حكمه، ولا أن يعملوا بمقتضاه، على حين أنّه إيمان ملتهب مشتعل قوي في نفوس الإخوان المسلمين».

استهداف روابط الوطنية

يتحدث البنا بعد ذلك في نفس الرسالة تحت عنوان «وسائل» مركّزاً على دور الدعاية واستخدام فنون هذا العصر في التواصل، مدركاً لأهميتها في الدعاية للدعوات والأفكار؛

تعتبر الجماعة الناس مؤمنين إذا انضموا لها باعتبار الإخوان المجاهدين الذين جمعوا بين العمل والإيمان

كالمجلات والجرائد والمسارح والسينما والراديو، فيقول «لهذا كان من واجب أهل الدعوة أن يحسنوا تلك الوسائل جميعاً حتى يأتي عملهم بثمرته المطلوبة»، وقد تصوّر حسن البنا أنّه قادر بذلك على هدم كل الدعوات والأفكار لحساب دعوته باعتبار أفكاره الميزان الذي يزن بها أي دعوات «وموقفنا من الدعوات المختلفة التي طغت في هذا العصر وفرّقت القلوب وبلبلت الأفكار أن نزنها بميزان دعوتنا».

وفي هذا السياق تقصّد البنا ضرب فكرة الوطنية التي اعتبرها مجرد ردة فعل على الاستعمار، وسعى إلى قتلها في النفوس بجعلها في مواجهة مع الدين «أما نحن فنعتقد أن المسلم في عنقه أمانة عليه أن يبذل نفسه وماله في سبيل أدائها، تلك هي هداية البشر بنور الإسلام ورفع علمه خفاقاً في كل ربوع الأرض».

ما يطرحه حسن البنا هو قتل كل الروابط الوطنية والقومية، يقول في حسم «اعلمْ، أيّدك الله، أنّ الإخوان المسلمين يرون الناس بالنسبة لهم قسمين: قسم اعتقد ما اعتقدوه من دين الله وكتابه وآمن ببعثة رسوله وما جاء به، وهؤلاء تربطنا بهم أقدس الروابط رابطة العقيدة، وهي عندنا أقدس من رابطة الدم ورابطة الأرض؛ فهؤلاء هم قومنا الأقربون، الذين نحن إليهم ونعمل في سبيلهم ونزود عن حماهم ونفتديهم بالنفس والمال في أي أرض كانوا، ومن أي سلالة انحدروا، وقوم ليسوا كذلك ولم نرتبط معهم بهذا الرباط فهؤلاء نسالمهم ما سالمونا ونحبّ لهم الخير ما كفّوا عدوانهم عنا».

يواصل البنا تناقضاته الفكرية حين يقول إنّ الإجماع على أمر فرعي متعذر، فكيف أجمعَ على أنّ الإمامة من أصول الدين ثم يلبّس ذلك قائلاً: «إنّ الناس كانوا إذا اختلفوا رجعوا إلى الخليفة وشرطه الإمامة فيقضي بينهم ويرفع حكمه الخلاف، أما الآن فأين الخليفة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأولى بالمسلمين أن يبحثوا عن القاضي ثم يعرضون قضيتهم عليه».

وبطبيعة الحال يرى البنا نفسه المؤهل لهذا الدور، الذي سيسعى لتحقيقه كما حدّد في ختام رسالته الذي يدور حول أركان ثلاثة: أوّلها المنهاج الصحيح الذي يدّعي أنّه أخذه من الكتاب والسنة، والعاملون المؤمنون الذي وجدهم في أعضاء الجماعة، والقيادة الحازمة الموثوق بها ويزكّي البنا نفسه بالقول «وقد وجدها الإخوان المسلمون كذلك فهم لها مطيعون وتحت لوائها يعملون».

33

هذه ملامح الانقلاب الذي دعا إليه البنّا

ما تزال رسائل حسن البنا تكشف أسلوبه بتوظيف النصوص الدينية وشرعنة خلط الدين بالسياسة، من خلال خطاب يتخفّى خلف الكتاب والسنّة، والقراءة الخاصة بأحداث السيرة.

تكشف رسائل البنا أسلوبه بتوظيف نصوص الكتاب والسنّة وشرعنة خلط الدين بالسياسة

تمهيد لأفكار الجماعة

يتجلّى ذلك بوضوح في رسالته، التي تحمل عنوان «إلى أيّ شيء ندعو الناس»؛ التي حاول من خلالها تمهيد الطريق لأفكاره، كي تشقّ طريقها نحو نفوس من يدعوهم لاتباع جماعته، وجسّدت انقلاباً حقيقياً في المفاهيم والتصورات عن طبيعة الدين وفعله في دنيا الناس.

دعا البنا، في بداية تلك الرسالة، إلى اعتماد مقياس للحكم على ما يطرحه، بما أسماه «دعوة الإخوان المسلمين ومقاصدها وأساليبها ووسائلها»، مدّعياً استنباطه من كتاب الله، عز وجل، وهو يحرص على طرح مقدمة ترقى إلى مسلَّمة لا تقبل الجدل؛ فمن ذا الذي يرفض تحكيم كتاب الله، عز وجل، في الأقوال والأفعال!

يقول: «يا قومنا، إنّ القرآن الكريم كتاب جامع، جمع الله فيه أصول العقائد، وأسّس المصالح الاجتماعية، وكليات الشرائع الدنيوية، فيه أوامر وفيه نواهٍ، فهل عمل المسلمون بما في القرآن، فاعتقدوا وأيقنوا بما ذكر الله من المعتقدات، وفهموا ما أوضح لهم من الغايات؟ وهل طبقوا شرائعه الاجتماعية والحيوية على تصرفاتهم في شؤون حياتهم؟»، ويتابع قائلاً: «إن انتهينا من بحثنا أنّهم كذلك، فقد وصلنا معاً إلى الغاية، وإن تكشّف البحث عن بُعدهم عن طريق القرآن، وإهمالهم لتعاليمه وأوامره، فاعلم أنّ مهمّتنا أن نعود بأنفسنا، وبمن تبعنا، إلى هذا السبيل».

هكذا، ببساطة، يطرح حسن البنا نفسه قيّماً على الناس من خلال فهمه الخاص لواقع كلّ شخص بمدى تقيده بمراد الشريعة والقرآن، فيصدر حكمه، ثم يقيّم هؤلاء على مراد الله الذي يعرفه؛ وكأنّه وحده هو وحده من فهم الشريعة، والإخوان دون غيرهم القادرون على حمل الناس عليها.

احتكار تصوّر مكتمل ومنمَّط للشريعة

يتسلّح البنا بالمنطق الحدّي نفسه الذي لجأت إليه كل الجماعات التي ظهرت قبله أو بعده، وهو احتكار تصوّر مكتمل ومنمَّط للشريعة، لا ينقصه سوى التطبيق على الناس؛ لذا يبدو واقع الناس دوماً -وهو واقع متباين بتباين قدراتهم وأفهامهم وطاقاتهم- واقعاً مغايراً للصورة التي يعرفونها أو بالأحرى يتوهّمونها، وهم يخلطون بين سلوك الناس وغاياتهم، التي تبقى أمراً باطنياً في نفس كلّ منهم.

تسعى رسالة «إلى أيّ شيء ندعو الناس» لقلب المفاهيم والتصورات عن طبيعة الدين وفعله في دنيا الناس

مختبئاً من جديد خلف النصوص، ومقسماً الناس حول الغاية من الحياة، يقول: إنّ «القرآن حدّد غايات الحياة، ومقاصد الناس فيها، فبيّن أنّ قوماً همّهم من الحياة الأكل والمتعة، وغيرهم الزينة والعرض الزائل، وأنّ قوماً آخرين شأنهم في الحياة إيقاد الفتن وإحياء الشرور والمفاسد»، ولا يجد غضاضة في الادعاء بأنّ الله ألقى على الإخوان المسلمين مسؤولية تحمل هداية الناس إلى الغايات دون غيرهم، لمعرفتهم بالمقصد الصحيح، فيقول: «تلك مقاصد من مقاصد الناس في الحياة، نزّه الله المؤمنين عنها وبرّأهم منها، وكلفهم مهمة أرق، وألقى على عاتقهم واجباً أسمى؛ هو هداية البشر إلى الحقّ، وإرشاد الناس جميعاً إلى الخير، وإنارة العالم كلّه بشمس الإسلام».

لكن أين تلك الغاية من مشروع الإخوان؟ أثبتت الوقائع أنّه مشروع سياسي بامتياز، يتوسّل بإطار الجماعة الدعوية، ليبقى بمنأى عن ضعف الرابطة التنظيمية بين أعضاء الحزب الواحد في جلّ الأحزاب السياسية، التي هضم البنا تجربتها جيداً، ليمزج لاحقاً بين الحزب والجماعة في حركته.

الوصاية على الناس

فهم حسن البنا من القرآن الكريم أنّ الإسلام يفرض وصاية المسلمين على البشر، يقول في فهم هذا السياق، بعد الآية الكريمة {يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير} ويتابع في هذا السياق قائلاً: معنى هذا أنّ القرآن الكريم يقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة، ويعطيهم حقّ الهيمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصاية النبيلة، إذاً؛ ذلك من شأننا لا من شأن الغرب، ولمدنية الإسلام لا لمدنية المادة».

وهذا الحق بالوصاية على الناس الذي يدعيه البنا لم يعطِه الله تبارك وتعالى حتى للنبي محمد، صلّى الله عليه وسلّم، في مواجهة من يدعوهم، فقال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}، وَ{إِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}؛ آيات واضحة في دلالتها لم تعط النبيّ هذا الحقّ، لكنّ

فهم حسن البنا من القرآن الكريم أنّ الإسلام يفرض وصاية المسلمين على البشر

حسن البنا يعطي نفسه وجماعته الحقّ في أن يدعو لما يريد، ويحمل الناس عليه بالقوة، معتقداً أنّ هذا حقّ الإنسانية، يقول: إنّ الله أمر المسلمين بإقامة الصلاة والزكاة والحجّ .. إلخ، ثمّ أمرهم بعد ذلك أن يجاهدوا في الله حقّ جهاده، بنشر هذه الدعوة وتعميمها بين الناس بالحجة والبرهان، فإن أبوا إلا العسف والجور والتمرد، فبالسيف والسنان:

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ≈
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

وقد مضى سلوك الجماعة بالفعل في هذا السبيل، سبيل الحرب وحمل الناس على ما تكره بالقوة كما يشهد تاريخهم.

يمثل الكلام السابق دعوة تتناقض مع زعم البنا من جمع الخلق على المتفق عليه من هدي السماء، لذا بدا الاتهام حتمياً له بأنّ هذه سياسة وهذا اشتغال بالسياسة، فحرص على نفيه بالقول، تحت عنوان «نحن والسياسة من نفس الرسالة»: «ويقول قوم آخرون إنّ الإخوان المسلمون قوم سياسيون، ودعوتهم دعوة سياسية، ولهم من وراء ذلك مآرب أخرى»، فينفي التهمة بالقول: «يا قومنا: إننا نناديكم والقرآن في يميننا، والسنّة في شمالنا، وعمل الصالحين من أبناء الأمة قدوتنا، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام، وهدى الإسلام، فإن كان هذا من السياسة عندكم، فنحن أعرق الناس، والحمد لله، في السياسة»، وهذا خلط واضح يختبئ من جديد خلف النصوص، معتسفاً فهمها، ومدعياً أنه هو وحده من يمثلها، وهو اختطاف للدعوة فعله الخوارج قبلهم وفعله كثيرون من بعدهم.

هذا ما فهمه حسن البنا من الإسلام، ودعا الناس إليه، وعمل عليه، وهو يرى أنّ بإمكانه فعل ما فعله الأوائل من المسلمين، وعدّ ذلك نهضة لا نظير لها، بهذا المنطق يقول في نهاية تلك الرسالة: «من ذا الذي كان يصدّق أنّ هذه الشيعة الضئيلة المستترة من بني علي والعباس، تستطيع أن تقلب ذلك الملك القويّ واسع الأكناف، ما بين عشية وضحاها، وهي ما كانت يوماً إلا عرضة للقتل والتشريد والنفي والتهديد؟ ومن ذا الذي كان يظنّ أنّ صلاح الدين الأيوبي يقف الأعوام الطوال فيردّ ملوك أوروبا، ذلك في التاريخ القديم، وفي التاريخ الحديث، أروع المثل على ذلك؛ فمن كان يظنّ أنّ الملك عبد العزيز آل سعود، وقد نفيت أسرته، وشرّد أهله، وسلب ملكه، يسترد هذ الملك ببضعة

الوصول إلى الحكم غاية يكشفها البنا بنفسه بعيداً عن النصوص التي اختبأ خلفها

وعشرين رجلاً، ثمّ يكون بعد ذلك أملاً من آمال العالم الإسلامي في إعادة مجده وإحياء وحدته؟ ومن كان يصدّق أنّ ذلك العامل الألماني هتلر يصل إلى ما وصل إليه من قوة النفوذ ونجاح الغاية».

تلك، إذاً، هي الغاية؛ الوصول إلى الحكم، يكشفها البنا بنفسه، بعيداً عن النصوص التي اختبأ خلفها، والشريعة التي يدعي رفع لوائها، وبذلك تتبدّى على نحو واضح ملامح الانقلاب الذي دعا إليه؛ من تحويل الدعوة الدينية، التي يفترض أن تجمع الناس، إلى فتن تقتل وتفرّق، وبذا تنكشف بوضوح ملامح رسالته «إلى أيّ شيء ندعو الناس».

34

بين الأمس واليوم..هل كانت الجماعة وفيّة لمبادئها؟

تبقى رسائل حسن البنا المصدر الأكثر تعبيراً عن أفكار الإخوان المسلمين ومقولاتهم الرئيسية؛ حيث لم تقدم الجماعة تنظيراً أبعد من الفضاء الذي ذهب إليه مؤسّسها؛ كما في رسالته «بين الأمس واليوم»، التي تداولها الإخوان باعتبارها تعرض مبادئ الإسلام، ووسائل الإصلاح التي رسمها الرسول، صلى الله عليه وسلم، ونبذة عن الدولة الإسلامية في مطلع نهضتها، وتقدم تحليلاً للعوامل التي أفسدت على المسلمين نهضتهم، وفي ختام الرسالة كلمات توجيهية لإصلاح حال الأمة لاستعادة مجدها.

تطرح هذه الرسالة ككثير من أدبيات الإخوان السؤال حول مدى استفادتهم في تجربتهم مما سطروه هم أو مرشدهم

تطرح هذه الرسالة ككثير من أدبيات الإخوان السؤال حول مدى استفادتهم في تجربتهم مما سطروه هم؟ أو سطره مرشدهم من دروس، كما يراها، كانت شروطاً لازمة لنجاح ما يسميه الإسلامويون بالمشروع الإسلامي؟

التمسّح بالدعوة النبوية

يواصل البنا في هذه الرسالة نهجه الأثير في عمل تماهٍ بين التجربة النبوية أو التجربة الإسلامية بمجملها، وتجربة جماعته التي يراها امتداداً لهذه التجربة وأميناً على تنفيذ مقتضياتها، فيمضي في تذكير المسلمين بمسلّمات هي بنظره ميراثهم المشترك الذي لا تستطيع جماعة مهما كان عدد أفرادها أو انتشار فروعها أن تحتويه أو تمارس من خلال هذا الادعاء حقوقاً على الأمة.

يموّه الرجل كالعادة بالحديث عن أصول الإسلام، التي يراها نفسها أصول الإخوان، والتي لخّصها بكلمات موجزة كعادته في سائر رسائله.

أول هذه الأصول الربانية التي قال عنها في رسالة دعوتنا «أما أنّها ربانية فلأنّ الأساس الذي تدور عليه أهدافنا جميعاً أن يتعرف الناس إلى ربهم، وأن يستمدّوا من فيض هذه الصلة روحانية كريمة تسمو بأنفسهم عن جمود المادة الصماء وجحودها إلى طهر الإنسانية الفاضلة وجمالها»، فهل كان سلوك الجماعة منذ النشأة متسماً بالربانية؟ ومستحضراً لهيمنة الإله العظيم على هذا الكون، فاستحضرت الجماعة مراقبته فلم تغش أو تكذب أو تقتل أو تفسد في الأرض؟ أم أن تصوّرها عن الربانية أن تستلب حق الله على عباده وتجعله لنفسها من دون الخلق والجماعات والدول؟

أوهام التسامي والأخوّة

ثم يعطف على أصل آخر هو «التسامي بالنفس الإنسانية»، فهل ألزمت نفسها وأعضاءها بهذا التسامي فتسامت عن الأطماع الدنيوية، وقدمت من أبنائها نموذجاً في حب الخير العام والتعفف عما في أيدي الناس، الواقع ينبئ بغير ذلك؛ فقد تورّطت الجماعة دون أي حرج شرعي في إنفاق أموال البر والجمعيات الأهلية التي أدارتها أو اشتركت في إدارتها، على أنشطتها السياسية وتكفّلت ماكينة الفتوى داخلها بالتبرير والتسويغ الشرعي لذلك، فهل يمثّل ذلك لوناً من ألوان التسامى واستحضاراً لما قرّرته الجماعة من أصول الإصلاح الاجتماعي ألا وهو «تقرير

يلبس البنا كالعادة بالحديث عن أصول الإسلام التي يراها نفسها أصول الإخوان والتي لخّصها بكلمات موجزة

عقيدة الجزاء» الذي أورده البنا في رسالته هذه؟

ثم يعرّج البنا على أصل آخر أسماه «إعلان الأخوّة بين الناس»، فهل كانت الأخوّة التي يعتقدها الإخوان يوماً تتسع دوائرها لتبدأ بالأرحام فذوي القرابة فأبناء الوطن فأبناء الأمة إلى أخوة الإنسانية كما يزعمون؟ أم أنّ الدائرة كانت لديهم أضيق من أي دائرة من دوائر الأخوة المعروفة، إلى حد أنها لم تشمل سوى المؤمنين بحزب الإخوان أما غيرهم فهم أعداء وخصوم إلى الأبد؟

يواصل البنا تعديد ما سماها أصول الإصلاح الاجتماعي المستمد من الإسلام، فيشير إلى مبدأ اجتماعي آخر هو «النهوض بالرجل والمرأة جميعاً وإعلان التكافل والمساواة بينهما، وتحديد مهمة كل منهما تحديداً دقيقاً»، ويمكن ملاحظة التناقض الذي تنطق به هذه العبارة في ثناياها؛ حيث البنا يبدأ بتقرير المساواة لكنه يختم بعبارة مخاتلة كعادته يقول فيها «تحديد مهمة كل منهما تحديداً دقيقاً»، وهو ما فصّله بوضوح في «رسالة المرأة» حيث حرمها من التعليم وجعل حقها فيه أن تتعلم ما تصير به زوجة وحسب، فضلاً عما دعا إليه في مجلة الإخوان العام ١٩٤٧ بحرمانها من الحق في الانتخاب القاعدة التي خرقها الإخوان أنفسهم عندما وجدوا أنها تعيق وصولهم إلى السلطة.

نشر بذور الفرقة

ثم يصل إلى نقطة أخرى أسماها «تأكيد وحدة الأمة والقضاء على مظاهر الفرقة وأسبابها»؛ التاريخ يؤكد أنّ الجماعة كانت دائماً أحد أهم أسباب الفرقة، بحرصها على الحزبية والحدية وتقسيم العالم إلى فسطاطين تحت راية الحرب الأزلية بين الحق والباطل كما تراها، كان الإخوان طوال تاريخهم مع الشذوذ والفرقة، فعندما اتجهت الآمال في مصر لتحرير الوطن من الاحتلال البريطاني واستعادة استقلال الأمة، عبأ الإخوان الطاقات في اتجاه آخر أبعد، وشغلوا الناس بمعركة وهمية أكبر هي استعادة وحدة الأمة تحت راية الخلافة، ولا نعلم كيف يمكن أن تُستعاد وحدة أمة عبر جمع أمم متشظية من داخلها ينخرها الجهل والمرض والفاقة فضلاً عن كونها محتلة من غيرها؟

ثم تأتي أهم فكرة حاول البنا رزعها بين أصول الإصلاح الاجتماعي المنشود، ففي آخر تلك البنود يدعو إلى «اعتبار الدولة ممثلة للفكرة وقائمة على حمايتها، ومسؤولة عن

خرق الإخوان القاعدة التي أرساها البنا بحرمان المرأة من الانتخاب عندما أدركوا أنّها تعيق وصولهم إلى السلطة

تحقيق أهدافها في المجتمع الخاص وإبلاغها إلى الناس جميعاً».

تعد هذه الدعوة أخطر الأفكار الواردة في تلك الرسالة، فهي ذاتها التي نسجت على منوالها كل حركات التطرف والإرهاب منذ نشأة الجماعة وصولاً إلى «داعش»، التي فهمت هذه الرسالة وأخلصت لها فجعلت جهدها هو في تأسيس دولة تصنع مجتمعاً خاصاً، مدعية حماية الشريعة وساعية لإكراه الناس على تصورها عنها، ثم إبلاغ الناس جميعاً أن يخضعوا لسلطان هذه الدولة.

إنها دولة الدين الواحد ونمط الحياة الواحد والفكرة الواحدة والسلطة الواحدة المطلقة، وفق رؤية الجماعة؛ فلم يكن غريباً أن يتشبث الإخوان بالسلطة في العام ٢٠١٣ وهم الذين يؤمنون أنهم ينفذون موعود الله وموجبات الدين في إقامة دولة تحمي الفكرة الإخوانية.

اللافت أنّ الإخوان لم يلتزموا بما كتبه البنا في هذه الرسالة عندما تعرض لاستقصاء عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية؛ حيث كان يرى أنّ من أهم تلك العوامل «الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه، والتحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك والتزهيد في الإمارة ولفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول».

الوفاء للتجربة العثمانية

يواصل البنا عند حديثه عن «عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية» صرف الأذهان عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى انهيار الدولة العثمانية فيقول «اطمأنت الدولة الإسلامية تحت لواء العثمانيين إلى سلطانها، واستنامت إليه وغفلت عن كل ما يدور حولها، ولكن أوروبا التي اتصلت بأضواء الإسلام غرباً بالأندلس وشرقاً بالحملات الصليبية، لم تضع الفرصة ولم تغفل عن الاستفادة بهذه الدروس، فأخذت تتقوّى وتتجمع تحت لواء الفرنجة في بلاد الغال، واستطاعت بعد ذلك أن تصد تيار الغزو الإسلامي الغربي»، فيتغافل البنا عن فساد الدولة والسوس الذي كان ينخر داخلها بفعل الاستبداد الداخلي من جهة والتسلط على الإمارات العربية التي نهبها العثمانيون وأفسدوها وأفقروها من جهة أخرى.. لم يكن هذا الأمر مستغرباً، فقد كان برنامج الجماعة من نشأتها برنامجاً حزبياً عثمانياً في جوهره.

كان برنامج جماعة الإخوان المسلمين من نشأتها برنامجاً حزبياً عثمانياً في جوهره

كان البنا واعياً بأنّ هذا الخيار سيرفضه الشعب وسيعاديه؛ لأنه ليس نبتا أصيلاً لهذه الأرض؛ لذا كان صريحاً في توطين عناصره على ما سيلاقونه من مصير لم يختلف على طول العهود ملكية كانت أم جمهورية، «أحب أن أصارحكم أنّ دعوتكم لازالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية»، ثم يختم تلك الرسالة بالقول «أردت بهذه الكلمات أن أضع فكرتكم أمام أنظاركم، فلعل ساعات عصيبة تنتظرنا يحال فيها بيني وبينكم، فلا أستطيع أن أتحدث معكم أو أكتب أليكم فأوصيكم أن تتدبروا تلك الكلمات وأن تحفظوها إن استطعتم، وأن تجتمعوا عليها، وإنّ تحت كل كلمة لمعاني جمّة».

حفظ الإخوان دروس مرشدهم، لكن الأهم أنّ الأمة التي ادعى محاولة إصلاحها فقهت المغزى الذي يريد جيداً، وإن عاشت فصولاً من الغفلة بفعل عمل وسلوك فريق من الناس آمن بتلك الأفكار التي خدع بها البسطاء، قبل أن يدركوا مراميها في النهاية.

35

كيف استغل حسن البنا الشباب؟

تعتمد كلّ أمة في نهضتها على طاقة الشباب بشكل أساسي؛ فهم الكتلة الأكثر حيوية، والأقدر على دفع أثمان معارك البناء والتحديث، وعندما تعرف أمّة طريقها وترزق بالقيادة الراشدة وبثقافة التحديث المناسبة، والإرادة اللازمة للفعل الحضاري، يصبح من اليسير الولوج للمستقبل. ومن هذا المنطلق أدرك مؤسس جمعة الإخوان المسلمين حسن البنا، أنّ هذه الفئة المدخل لنجاح مشروعه؛ لذا فقد خصّها برسالة من رسائله، هي «إلى الشباب وإلى الطلبة خاصة».

أدرك حسن البنا أنّ فئة الشباب المدخل لنجاح مشروعه لذا خصّهم برسالة من رسائله

تجنيد الشباب

وتخصيص شريحة الطلبة من بين الشباب لم يأتِ عبثاً في رسالة البنا؛ فالطالب لم يتحمّل بعد أعباء إدارة بيت، أو الإنفاق على أسرة وأولاد، ولديه الوقت والجهد الكافيْن لبذلهما في سبيل ما يؤمن به، وهو في تلك المرحلة العمرية؛ التي تتّسم بالنزوع للخيال وتوهّم القدرة على صياغة العالم على مقاس أفكاره، ويعد لذلك هدفاً مفضلاً على شاب آخر تخطّى الدراسة وحظي بمهنة أو وظيفة، متطلعاً لحياته الشخصية، باذلاً جهده في سبيل تهيئة حياة وبيت وأسرة.

أدرك حسن البنا ذلك جيداً، وهو يريد جنوداً، لا أفراداً أحراراً يشاركونه الفعل والقرار، وأطوع الجنود وأكثرهم بذلاً هم الشباب؛ متى آمنوا بفكرة، وخالطت عقولهم ومشاعرهم، وقد كان الرجل بارعاً في العزف على تلك الأوتار، وإثارة تلك المشاعر.

مهّد الرجل، في رسالته، بمقدمة بليغة غازل فيها الأجيال الصاعدة، وشحذ همّتهم وحماستهم بقوله: «إنّما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، ووُجِد الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، والاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها، وهذه كلّها لا تكون إلا للشباب؛ {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}».

الفصل عن الواقع

يختم البنا بهذه الآية، ليكرّس في وعي الشباب؛ أنّ هذه المجتمعات أبعد ما تكون على الطريق الصحيح، وأنّهم وحدهم، كفتية الكهف، الذين يسطرون بتفردهم ملحمة الإيمان، والانفصال عن الكفر والجاهلية اللذين يحاربهما.

هو يعي، منذ اللحظة الأولى، ما يريد تحقيقه؛ فصْل هؤلاء الشباب عن واقع مجتمعاتهم، وبناء مشروع بديل، يعزف على وتر المشاعر الدينية، ثم يضع هؤلاء الشباب أمام تلك المهمة المقدسة، فيقول: «قد ينشأ الشاب في أمة وادعة هادئة، قوي سلطانها، واستبحر عمرانها، فينصرف إلى نفسه أكثر مما ينصرف إلى أمته، ويلهو ويعبث وهو هادئ النفس مرتاح الضمير، وقد ينشأ في أمة مجاهدة عاملة، قد استولى عليها غيرها، واستبدّ بشؤونها خصمها؛ فهي تجاهد ما استطاعت في سبيل استرداد الحقّ المسلوب والتراث المغصوب، والحرية الضائعة، والأمجاد الرفيعة، والمثل العليا، وحينئذ؛ يكون من أوجب الواجبات على هذا

أطوع الجنود وأكثرهم بذلاً هم الشباب متى آمنوا بفكرة وخالطت عقولهم ومشاعرهم

الشاب، أن ينصرف إلى أمّته أكثر ممّا ينصرف إلى نفسه».

ويتابع قائلاً: «وهو إذ يفعل ذلك يفوز بالخير العاجل في ميدان النصر والخير الآجل من مثوبة الله، ولعلّ من حسن حظنا أنّنا كنا من الفريق الثاني؛ فتفتحت أعيننا على أمّة دائبة الجهاد، مستمرة الكفاح في سبيل الحق والحرية، واستعدوا، يا رجال، فما أقرب النصر للمؤمنين، وما أعظم النجاح للعاملين الدائبين».

وقود معركة دائمة

يمكن بسهولة رصد أجواء المعركة الدائمة التي يلهب بها ضمير الشباب، ويدغدغ بها مشاعرهم، بهذه الحدّية المسيطرة على تصوّره، في جعل الدنيا دار الصراع الدائم بين الحقّ، الذي يتصور أنه من نصيب جماعته أو حزبه، والباطل الذي يقتسمه باقي الناس.

يفترض حسن البنا أنّ الدنيا كانت يجب أن تدين لفريق من المسلمين، يكون لهم السلطان على هذه الأرض، وقتها كان من الممكن أن يكون لهذا الشاب حياة خاصة وأهداف خاصة، وطموح خاص، لكنّ المعركة لا تدع لأحدٍ من خيار، سوى حمل السلاح والجهاد بمفهومه.

يضع البنا مجموعة من الافتراضات، ويجعلها مسلَّمات لا تقبل الجدل، لتكون المعمار الذي ستبنى عليه تصورات هؤلاء الشباب، فتحوّلهم إلى وقود لتلك التصوّرات، فيخاطبهم بحدّية وحسم، تحت عنوان: «دعوة الإخوان المسلمين»، أو «دعوة الإسلام في القرن الهجري الرابع عشر»، وبتأمل هذا العنوان جيداً؛ يمكن إدراك أنّ الرجل يقول: إنّ المسلمين جميعاً عليهم أن يكونوا أعضاء في هذا الحزب، ليبقى وصفهم بالإسلام، لأنهم التجسيد الحيّ لهذا الدين.

يقول: «يا شباب، لقد آمنا، إيماناً لا جدال فيه ولا شكّ معه، واعتقدنا عقيدة أثبت من الرواسي، وأعمق من خفايا الضمائر، بأنّه ليس هناك إلا فكرة واحدة؛ هي التي تنقذ الدنيا المعذبة، وترشد الإنسانية الحائرة، وتهدي الناس سواء السبيل، وهي لذلك تستحق أن يضحي في سبيل إعلانها والتبشير بها، وحمل الناس عليها، بالأرواح والأموال، وكلّ رخيص وغالٍ، هذه الفكرة هي الإسلام الحنيف الذي لا عوج فيه، ولا شرّ معه، ولا ضلال لمن اتبعه»، وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان الإخوان هم الممثل الحصري للإسلام، كما ذكر، فإنّ نصرة هذا الحزب والعمل معه هي أصل الجهاد لنشر الدين والدفاع عنه.

يكرّس البنا في وعي الشباب بُعد المجتمعات عن الإسلام وأنّ الإخوان وحدهم أصحاب الإيمان الصحيح

مبعوثو العناية الإلهية!

هو ينتدبهم لهذا الدور؛ فيجعل الارتباط بالجماعة، والعمل تحت لوائها، هو صحيح الإيمان بالدين والعمل من أجله، ثم يحفزهم لهذا العمل، فيقول: «فأول ما يدعوكم إليه أن تؤمنوا بأنفسكم، وأن تعلموا منزلتكم، وأن تعتقدوا أنكم سادة الدنيا»!

يتوهّم البنا أنّه، هو وجماعته، مبعوثو العناية الإلهية لإنقاذ العالم، متعمداً التبشير بذلك تحت لوائه باسم الدين، فيقول: «إنّ العالم كلّه حائر يضطرب، وكلّ ما فيه من النظم قد عجزت عن علاجه، ولا دواء له إلا الإسلام، فتقدموا -باسم الله- لإنقاذه، فالجميع في انتظار المنقذ، ولن يكون المنقذ إلا رسالة الإسلام التي تحملون مشعلها وتبشرون بها».

الدين حالة امتلاء روحي، تصوغ إنساناً صالحاً متعاوناً مع غيره، راشداً في أفعاله، والدولة صيغة جامعة تحفظ حقوق الناس، وتمضي بمؤسساتها نحو التحديث والرقي، محكومة بالقانون، لكن يتوهم البنا أنّ هناك خطة أخرى؛ هي خطة الحرب الدائمة، التي تفرض برنامجاً تعبوياً، يبدأ بصياغة أمّة الأيديولوجيا الواحدة المغلقة، التي لن يعبّد طريقها سوى ما أسماه منهاج الإخوان المسلمين.

يصوغ البنا هذا المنهاج وفق خطة تبدأ، على حدّ قوله: «بالرجل المسلم، ثم بعد ذلك البيت المسلم، ونريد بعد ذلك الشعب المسلم، فالحكومة المسلمة؛ التي تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد، كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، من قبل، ونحن لهذا لا نعترف بأيّ نظام حكوميّ لا يرتكز على أساس الإسلام، ولا يستمدّ منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية، ولا بهذه الأشكال التقليدية، التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها، والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكلّ مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام».

يفصح البنا، في تلك الفقرة، عن أهدافه الحقيقية، وتتبدّى أفكاره أكثر وضوحاً حين يتحدث عن ضمّ كلّ جزء ينتسب للإسلام تحت السلطة التي يسعى إليها، مؤكّداً أنّه: «إن كان الرايخ الألماني يفرض نفسه حامياً لكلّ من يجري في عروقه دم الألمان، فإنّ العقيدة

إنّها الفاشية باسم الإسلام تلك التي يدعو إليها البنا متمثلاً هتلر وموسوليني دون أن يخفي إعجابه بهما

الإسلامية توجب على كلّ مسلم قوي، أن يعدّ نفسه حامياً لكلّ من تشربت نفسه تعاليم القرآن، ولئن كان السنيور موسوليني، يرى من حقّه أن يعيد الإمبراطورية الرومانية، فإنّ من حقنا أن نعيد مجد الإمبراطورية الإسلامية».

إنّها الفاشية باسم الإسلام، تلك التي يدعو إليها البنا، متمثلاً هتلر، دون أن يخفي إعجابه بهما، في غير موضع، بما يتناقض مع رسالة الإسلام الحقيقية في التسامح والعدل، لا الحرب التي يريد البنا وجماعته إشعالها إلى الأبد.

36

جذور الحاكمية عند حسن البنا

شاع لدى كثير من المراقبين أنّ الحاكمية، كمفهوم عقائدي، لم تظهر في أفكار الجماعات المتطرفة إلا عندما نقلها سيّد قطب عن المودودي، باعتبار تلك الفكرة نتاجاً طبيعياً للعزلة النفسية والشعورية التي أحاط قطب وأتباعه أنفسهم بها، فألقتهم في أسر الماضي، الذي بدأ الخلاص من نير واقع لم يقبلهم يوماً ولم يقبلوه، لكنّ التفتيش في أدبيات الإخوان المسلمين، وتحديداً رسائل حسن البنا، يظهر أنّ الحاكمية تجد لها جذوراً لدى الأفكار المؤسسة للجماعة.

التفتيش في أدبيات الإخوان وتحديداً رسائل حسن البنا يظهر أنّ الحاكمية تجد لها جذوراً لدى أفكارهم المؤسسة

خلط متعمد

يظهر ذلك في الخلط المتعمد بين الشريعة كمنظمة قيمية عنيت بتحقيق المصالح وحفظ المقاصد؛ من دينٍ ونفسٍ ونسلٍ وعرضٍ، وهو ما أكّدته المفاهيم الراسخة في الفقه السنّي، ومنها مقولة الإمام الشاطبي: «إنّ وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل»، ومدونات الفقه القديمة، التي لم تكن سوى ثمرة متجددة تناسب العصر الذي ولدت فيه؛ حيث جسّدت في النهاية رحلة العقل المسلم في مواجهة النص على ضوء الواقع المتغير، وبالتالي يتغير الفقه والحكم والفتوى، لكنّ القيم المركزية؛ كالرحمة والتسامح والعدل والشورى والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر، وغيرها من القيم المعتبرة، لا تتغير.

يتوخى المشرّع دوماً مصالح العباد؛ المصلحة متغيرة تتطوّر وتتغير، بينما النصّ والفتوى لا يستطيعان ملاءمة هذه الحركة، إلا بمواكبة هذه المصلحة، واستنطاق النصّ بحسب الواقع من دون المسّ بالأصول، هذا الطرح العقلي المنطقي الذي ينسجم مع الفطرة الصحيحة، يرفضه حسن البنا، كما فعل سيّد قطب، وجماعات التطرف؛ التي تريد لنا أن نركب آلة الزمن، ونعود بالمجتمعات إلى واقعها قبل نشأة الدولة، لنبقى في مرحلة طفولة العقل البشري، التي لم تكن قد أنجزت بعد صيغ الدولة الحديثة، التي تتوزع فيها السلطات بالشكل الذي يضمن حصار الاستبداد، وتتيح الفرصة لكلّ عناصر المجتمع أن تكون شريكة في إدارة مقدراتها.

أنجزت التجربة الغربية فكرة الدولة الوطنية، وفكرة البرلمان الذي يشرّع للناس، بحسب خياراتهم الحضارية، وبدا القوم كما لو كانوا يستهدون بما أسماه الإمام محمد عبده «الهدايات الأربعة»؛ العقل، والنقل، والتجربة، والوجدان.

العقل المسلّح بالمعرفة والعلم، والنقل الصحيح الذي يسعفه بالصحيح النافع، هو ما يحقّق المصلحة المرجوة التي دعا إليها الإسلام، والتجربة البشرية المفتوحة التي أهدتنا العديد من النظم والقواعد التي نظمت العديد من مساحات حياتنا من دون أن تتناقض مع جوهر ديننا تعد مثالاً واضحاً على ذلك.

معاداة التلاقح الحضاري

يناهض حسن البنا وجماعاته هذا التصور ويرونه شكلاً من أشكال الهزيمة، فلا يفهم فكرة التلاقح الحضاري، ولا أنّ العلم هو

سيّد قطب وجماعات التطرف تريد أن تعود بالمجتمعات إلى واقعها قبل نشأة الدولة

منجز إنساني مشترك، ويعتقد أنّ دوره هو وجماعته ينصبّ في مناهضة هذا الواقع، والصراع مع هذا العالم، الذي اهتدى إلى حلّ العديد من المشكلات، التي أشعلت الحروب، وأزهقت ملايين النفوس، وبدّدت ثروات الشعوب، فيقول متحدثاً عن المهمة «المقدسة» لجماعته:

«ما مهمتنا، إذاً، نحن الإخوان المسلمين؟ أمّا إجمالاً؛ فهي أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة، وحضارة المتع والشهوات، التي جرفت الشعوب الإسلامية، فأبعدتها عن زعامة النبي، صلّى الله عليه وسلّم، وهداية القرآن، وحرمت العالم من أنوار هديها، وأخّرت تقدمه مئات السنين، حتى تنحسر عن أرضنا، ويبرأ من بلائها قومنا، ولسنا واقفين عند هذا الحدّ؛ بل سنلاحقها في أرضها وسنغزوها في عقر دارها، فلا تكون فتنة، ويكون الدين كلّه لله»، أي إنّ الرجل لن يكتفي بإفساد حياة الشعوب العربية والإسلامية بل يسعى لنقل المعركة إلى الدول الأخرى بهذه الروح العدائية التي لا تفرّق بين السياسة والحضارة والمدنية.

ثمّ يعود ليفصّل في الرسالة نفسها التي أسماها (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن): «أما مهمتنا تفصيلاً؛ فهي أن يكون في مصر أولاً، بحكم أنّها في المقدمة من دول الإسلام وشعوبه، ثم في غيرها كذلك: نظام داخلي يتحقّق به قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، ونظام للعلاقات الدولية: يتحقّق به قول القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، ونظام عمليّ للقضاء: يستمدّ من الآية الكريمة: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ونظام للدفاع والجندية: يحقّق مرمى النفير العام: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ونظام اقتصاديّ استقلاليّ: للثروة والمال والدولة والأفراد، أساسه قوله تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾».

وكدأب الإخوان في التمسح بالنصوص القرآنية لتبرير أهدافهم السياسية المبطنة يدعو البنا إلى «نظام للثقافة والتعليم: يقضي على الجهالة والظلام، ويطابق جلال الوحي في أول آية من كتاب الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ

العقل المسلّح بالمعرفة والنقل الصحيح هو ما يحقّق المصلحة المرجوة التي دعا إليها الإسلام

رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ونظام للأسرة والبيت: يُنشئ الصبي المسلم والفتاة المسلمة والرجل المسلم، ويحقق قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، ونظام للفرد في سلوكه الخاص: يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

ويختم بقوله: «نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة التي تقود الدول الإسلامية، وتضمّ شتات المسلمين، وتستعيد مجدهم، وتردّ عليهم أرضهم المفقودة، وأوطانهم المسلوبة، وبلادهم المغصوبة، ثم تحمل علم الجهاد ولواء الدعوة إلى الله، حتى تسعد العالم بتعاليم الإسلام».

انتهى هذا البيان البلاغي؛ الذي يعدّه الإخوان البرنامج السياسي لهم، والذي شكّل الإخوان الوزارة في مصر العام ٢٠١٢ على هديه، والذي عاين المصريون تحديداً «منجزاته» عبر عام الجماعة في السلطة، وتمثل فعلياً بالحرص على تمكين السلطة الإخوانية في جميع مفاصل الدولة، والتنكر لكل ما زعمته قبل ذلك من شعارات المشاركة وعدم الاستئثار بالحكم.

تصور مغلق للإسلام

الاسم «المفتاحي» لهذا البرنامج؛ هو حاكمية الشريعة بمفهوم الإخوان، التي لم يعرّفها أحد من الإسلاميين تعريفاً مانعاً جامعاً، رغم أنّ الشريعة في حقيقتها مفهوم أيسر من كلّ التعقيد الذي قدموه بها، إنها المنظومة القيمية التي تحقق مصالح الإنسان؛ لذا تبدو كلّ صيغة ينتجها البشر ميسّرة لحياتهم ومحققة لمصالحهم، هي الشريعة، أو الطريق الصحيح، تسمّت بالإسلام أو بغيره.

إنّ التجربة البشرية المفتوحة، تعارفت فيها كلّ الأمم على قيم الحياة الصحيحة، التي تباركها كلّ الشرائع والأديان؛ حيث بدأ الجميع بالسعي إلى الحرية والعدل والديمقراطية والتحديث، والواقع يقول: إنّ الغرب حقّق ذلك، وما يزال يتنافس على تحقيق المزيد، بينما نحن، أو فريق منا، ما نزال نتصور أن النبش في الماضي، ومعاداة العصر وحركته هو الطريق الوحيد للمجد المفقود.

الرجل يتصوّر أنّ الإسلام جاء ليُكره الناس، وأنّ تصوره المغلق هو الإسلام، ولا شيء غيره، يقول تحت عنوان «لو كانت لنا حكومة»: «لو كانت لنا حكومة إسلامية صحيحة

الإسلام (هو يلمز هنا في كلّ الحكومات حول العالم الإسلاميّ، بأنّ إسلامها ليس صحيحاً) صادقة الإيمان، مستقلة التفكير والتنفيذ، تعلم حقّ العلم عظمة الكنز الذي بين يديها، وجلال النظام الإسلامي الذي ورثته، وتؤمن بأنّ فيه شفاء شعبها وهداية الناس جميعاً؛ لكان لنا أن نطلب إليها أن تدعم الدنيا باسم الإسلام، وأن تطالب غيرها من الدول بالبحث والنظر فيه، وأن تسوقها سوقاً إليه؛ بالدعوات المتكررة، والإقناع، والدليل، والبعثات المتتالية، وبغير ذلك من وسائل الدعوة والإبلاغ، ولاكتسبت مركزاً روحياً وسياسياً وعملياً بين غيرها من الحكومات».

إنّها جذور الحاكمية التي فصّلها سيّد قطب، ونسجت على منوالها كلّ مجموعات التطرف؛ حين اختبأت خلف جلال النص القرآني، محاولة كعادتها ليّ عنق النصوص واستنطاقها بما يريدون، وصرف الناس عن سؤال البرامج العملية للنهوض التي يتهربون منها دوماً ولم يتمكنوا من تقديمها حتى اليوم.

37

هل الإخوان قوم عمليّون؟

تجاوزت مواهب مؤسس الجماعة، حسن البنا، في التنظيم قدراته في عالم الأفكار، كما يتجلى ذلك ببناء خطط إشغال دائم لعناصره تستهلك أعمارهم وأوقاتهم، في سبيل الخضوع لأحلامه، ومن ثم فقد زرع الرجل في عقول أتباعه بعض المسلّمات، التي صنعت تصوراً راسخاً اختزل السلوك العملي للمسلم في مواجهة أحكام دينه بالانتظام في صفوف الإخوان والعمل معهم، باعتبارهم قوماً عمليين غلّبوا العمل على القول، جرياً مع المنطق الإسلامي الذي يقرنهما معاً، «فلا خير في قول بلا عمل والإيمان لا يستقيم إلا إذا صدقه عمل صالح»؛ هذه المقولة الصحيحة نظرياً، لكن البنا جعل لها معنى خاصاً لا يستقيم سوى بما يتوافق مع منطقه الشخصي الذي ضمنه إحدى رسائله التي جعل لها عنواناً موحياً «هل نحن قوم عمليون؟».

تجاوزت مواهب حسن البنا في التنظيم قدراته في عالم الأفكار كما يتجلى ذلك ببناء خطط إشغال دائم لعناصره

تزكية الجماعة

يفتتح البنا رسالته بطريقة بلاغية اختارها سبيلاً لحمل أفكاره، لكي تكسب في نفوس أتباعه التقديس اللازم فيقول «وبقي سؤال آخر يتردد كثيراً على أفواه الناس كذلك، كلما دعاهم داعٍ إلى تشجيع هذه الجماعة التي تدأب على العمل ليل نهار، لا تبتغي من أحد جزاءً ولا شكوراً، ولا تعمل إلا لله وحده ولا تعتمد في خطواتها إلا على تأييده ونصره، وما النصر إلا من عند الله وشعار كل العاملين فيها «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

يركز البنا كالعادة على تزكية جماعته وأعضائها، وجعل اليقين في أنها تعمل لله، وتتخذ من منهاجه مسلّمة يبدأ بها حديثه، مادامت جماعته على الحق وله تعمل، مجسدة دور الجماعة المسلمة التي تحمل الدين بعد أن تركه الناس وتنصره بعد أن خذله الناس، حيث تتمسك هي بالعمل في مواجهة مجتمع من القاعدين المتخاذلين وفقا لتصوره.

وعلى عادته في خلط الدين بالتدين وجعلهما شيئاً واحداً، وإفراد الإخوان بالتمثيل الحصري للدين، يبدأ في توجيه النقد بل والتجريح إلى كل من يخالفه في عدم الانضواء تحت لواء جماعته أو حزبه، فيجعل السلوك العملي الوحيد في مواجهة الواقع أن تكون عضواً في جماعته، وإذا لم تستجب فأنت حتماً واحد من أصناف أطلق عليها سهامه في لغة متشنجة لا تستقيم مع نفسية من يقول إنه على الحق.

أسئلة مشروعة

ثم يستطرد قائلاً «هذا السؤال الآخر، أن يقول لك ذلك الذي تدعوه في استهانة وإعراض غالباً: وهل هذه الجماعة جماعة عملية؟ وهل أعضاؤها قوم عمليون؟».

وبقدر ما يبدو السؤال مشروعاً ولا يحتاج إلى مواجهته بسخرية أو استخفاف، كما يفعل البنا، فمن الطبيعي أن يسأل الناس عن السلوك العملي لهذه الأفكار التي تقمّصها أصحابها، ومن الطبيعي أن يسألوا ماذا سيفعل الإخوان لنصرة هذا الدين وتغيير هذا الواقع؛ ما تصورهم عن الحياة والكون وعلاقة الدين بالدولة، وأدوار المسلم الصحيحة وعلاقته بمن حوله، وغيره الكثير من الأشياء، كل

يفتتح البنا رسالته بطريقة بلاغية اختارها سبيلاً لحمل أفكاره لكي تكسب في نفوس أتباعه التقديس اللازم

هذا طبيعي في حركة تتصدى لدعوة الناس للانضمام إليها والعمل معها.

لكن ذلك لا يمنع البنا من توجيه الاتهام لمن يسأل بأنه واحد من أربعة «وهذا السائل أحد أصناف من الناس: إما شخص متهكم مستهتر لا يعنيه إلا أمر نفسه، ولا يقصد من إلقاء هذا السؤال إلا أن يهزأ بالجماعات والدعوات والمبادئ والمصلحين، لأنه لا يدين بغير مصلحته الشخصية ولا يهمه من أمر الناس إلا الناحية التي يستغلهم منها لفائدته فقط، أو هو شخص غافل عن نفسه وعن الناس جميعاً فلا غاية له ولا وسيلة ولا فكرة ولا عقيدة، وإما شخص مغرم بتشقيق الكلام وتنميق الجمل والعبارات، وإرسال الألفاظ الضخمة ليقول السامعون إنه عالم وليظن الناس أنه على شيء وليس على شيء، وليلقي في روعك أنه يود العمل ولا يقعده عن مزاولته إلا أنه لا يجد الطريق العملي إليه، وهو يعلم كذب نفسه في هذه الدعوى وإنما يتخذها ستاراً يغطي به قصوره وخوره وأنانيته وأثرته، وإما شخص يحاول تعجيز من يدعوه ليتخذ من عجزه عن الإجابة عذراً للقعود وتعلّة للخمول والمكسلة، وسبباً للانصراف عن العمل للمجموع».

يهاجم البنا كل من يطرح هذا السؤال، ليس لردع الآخرين عن توجيه هذا السؤال المنطقي فحسب، بل ليرهب وعي الأعضاء عن أن يفكروا في مثل تلك الأسئلة الوجودية والمنطقية، التي ينسف طرحها ومحاولة الإجابة عنها منطق الجماعة الضعيف، ويبدو دهاء الرجل بأن لا يوجه هذا الكلام إلى الأعضاء بل إلى الآخرين على طريق «إياكِ أعني واسمعي يا جارة».

لا نبتغي الجاهلين!

يواصل البنا في رسالته ردع الإخوان وغير الإخوان في التعامل مع جماعته باعتبارها تنتمي لعالم النسبية، أو تخضع أفكارها لمنطق العقل أو حتى النص، بل يطرحها باعتبارها تجسد المطلق الذي تركه الناس وغيّبوه ويعيده هو إلى الواقع، رافعاً سوط الترهيب في وجوه الناس، متهماً من يتأخر عنه بالقعود والجبن والتمسك بالنظريات، على حساب السلوك العملي الذي ينخرط فيه هو وأتباعه، وهو يواجه النتيجة التي وصل إليها في عدم قناعة الكثيرين بأفكاره أو العمل معه بالقول «وليس لنا مع هذه الألوان من الناس قول وليس لهم عندنا جواب، إلا أن نقول لهم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين،

يركز البنا على تزكية جماعته وأعضائها وأنها تعمل لله وتتخذ من منهاجه مسلّمة لها

وما لهؤلاء كتبنا ولا إياهم خاطبنا فقد أملنا فيهم الخير طويلاً وانخدعنا بمعسول دعاويهم وعذب ألفاظهم حيناً، ثم تكشف أمرهم عن وقت أضيع ومجهود عقيم وتعويق عن الطريق، ورأينا منهم ضروباً وألواناً وأصنافاً وأشكالاً جعلت النفس لا تركن إليهم، ولا تعتمد عليهم في شأن من الشؤون مهما كان صغيراً عليهم».

هل ثمة أكثر من هذه اللغة التي تكشف عن مكنون الرجل ومعتقده في الناس! ثم يعرج مواصلاً تزكيته لفريقه قائلاً «وهناك صنف آخر من الناس قليل بعدده كثير بجهده نادر لكنه ميمون»، هذا الصنف المفضل لدى البنا هم طائفة الإسلامويين، الذين عبر أحدهم وهو الشيخ محمد الغزالي عن شكره لله أن الله، عز وجل، سلب السلطة منهم قائلاً على مسمع من قياداتهم «الحمد لله أن ربنا سلب السلطة من الإسلاميين وإلا كانوا خربوا بيتنا»، ولقد فعلوا في أكثر من بقعة في العالم الإسلامي بعدما وعدوا الناس بالسمن والعسل.

يتابع البنا ادعاءاته بأخرى جديدة يتحدث فيها أنه يرحب بالفرد المفكر الذي يُعمل عقله، ويملك شجاعة التعبير عما يجول بخاطره، وهذه فرية عظيمة لمن قرأ تاريخ الجماعة وعلم ماذا تفعل في مواجهة من يفكر أو يطرح الأسئلة الصحيحة المحرجة، من قبيل كيف تفهمون الشريعة؟ كيف ستطبقونها؟ ما برامجكم للحكم؟ ورؤيتكم للعلاقات الدولية وحقوق الإنسان؟ وموقفكم من المرأة والديمقراطية؟ كلها أسئلة أجاب عنها الإخوان بالحال الذي كان أبلغ من أي مقال، حيث تبين للجميع موقفهم من كل تلك القضايا.

يقول البنا فيما استنكره على غيره «وهاأنذا أصارح كل الغيورين من أبناء الإسلام بأن كل جماعة إسلامية في هذا العصر، محتاجة أشد الحاجة إلى الفرد العامل المفكر وإلى العنصر الجريء المنتج، فحرام على من أنس من نفسه شيئاً من هذا أن يتأخر عن النفير دقيقة واحدة».

جاءت الرياح بما لا تشتهي سفن الجماعة؛ فكل من أنس في نفسه القدرة على التفكير الحر وامتلك شجاعة طرح الأسئلة الصحيحة، لم يجد بداً من تجنب أو الخروج من جماعة تتنكر لكل تلك القيم من حيث تدعي الدفاع

يدعي البنا الترحيب بالفرد المفكر الذي يملك شجاعة التعبير وهذه فرية عظيمة لمن قرأ تاريخ الجماعة

عنها، جماعة لا تردد سوى الشعارات مدعية أنها وحدها من يتمسك بالسلوك العملي، وهي التي لم تقدم لنا حلاً لأي مشكلة سواء في عالم الأفكار والقيم، أو في إدارة الدول التي ابتليت فيها بالسلطة والقرار، حيث أكدت أنها سيدة الشعارات بامتياز، وأنها لم تكن يوماً جماعة عملية، ولم يكن أعضاؤها يوماً عمليين؛ بل سابحون في فضاء المرشد وتهويماته التي لم تصمد أمام الواقع.

38

كيف صنع نظام الأسر مجتمع الجماعة الموازي؟

يروى أنّ الفرد من جماعة الإخوان في أحد البلدان العربية، إذا أراد أن يحجز تذكرة سفر لخارج البلاد، ذهب لوكالة سفر محددة يملكها إخواني، يخصّها بمعاملته دون باقي الوكالات والشركات، حتى لو فاقت أسعارها أسعار الشركات المنافسة، وأنّه في كلّ شؤونه ومعاملاته يتعامل، في الغالب، مع منتسبي الجماعة أو الشركات والوكالات المملوكة لها فقط.

تبين رسالة «الأسر» كيف حرص البنا على خلق مجتمع متمايز داخل المجتمعات العربية والإسلامية

هذا السلوك لا يبدو غريباً؛ إذا أُعيدت قراءة أدبيات الجماعة التي صنعت تلك الأفكار، وحفرت مسارات لهذا السلوك في العديد من البلدان العربية.

تعزيز القطيعة

تعدّ رسالة «الأسر»؛ إحدى أهمّ الرسائل التي كتبها حسن البنا في نهاية الثلاثينيات، وتشرح كيف حرص على أن يخلق مجتمعاً متمايزاً داخل المجتمعات العربية والإسلامية، يدّعي الاتصال بهذا المجتمع والتفاعل معه، لكن، مع الوقت، تتعزّز قطيعته، ليصنع «جيتو» خاصاً يشعر بالفوقية في مواجهة المجتمعات.

يبدأ البنا الرسالة بالحديث عن الأمر كما لو كان تكليفاً دينياً، فيقول: «يحرص الإسلام على تكوين أسر من أهله يوجههم إلى المثل العليا، ويقوّي روابطهم ويرفع أخوّتهم من مستوى الكلام والنظريات، إلى مستوى الأفعال والعمليات، فاحرص ـــ يا أخي ـــ أن تكون لبنة صالحة في هذا البناء (الإسلام)».

كلام عامّ بمعنى خاص؛ فالمقصود ليس أفراد المجتمع، بل أفراد التنظيم الذي يتحوّل إلى أسر أو تشكيلات أو خلايا، كلّ خلية يتراوح عددها بين خمسة وسبعة أفراد، يتزعمهم نقيب هو حلقة الوصل بينهم وبين التنظيم؛ حيث يتلقون تعليمات التنظيم من خلاله، ويتولّى هو تزويدهم بأيديولوجيا التنظيم وتعليماته، ويحقق شيئاً فشيئاً حالة من حالات الانفصال عن المجتمع، أو العزلة الشعورية والوجدانية التي تصور البعض أن من ابتدعها هو سيد قطب، بينما من وضع لها الإطار العمليّ، والنظام الإداريّ؛ هو حسن البنا، حتى قبل أن يعرف قطب طريقه لجماعة الإخوان.

استعادة الإسلام الضائع!

ينطلق البنا من فكرة شاعت في كتابات قطب لاحقاً، تحدث فيها عن الجيل القرآنيّ الفريد، أو الطليعة المؤمنة التي يريد أن تعود لتتمثل الإسلام، اعتقاداً وتصوّراً وسلوكاً، على طريقة الجماعة، لتستعيد الإسلام الضائع، وفق تصوّره.

يتحدّث البنا عن تلك الفكرة قائلاً: «وقد ظلّت هذه الأوامر الربانية والتوجيهات المحمدية، بعد الصدر الأول، كلاماً على ألسنة المسلمين، وخيالاً في نفوسهم، حتى جئتم معشر الإخوان المتعارفين، تحاولون تطبيقها في مجتمعكم (تنبّه لكلمة مجتمعكم تلك)، وتريدون تأليف الأمة المتآخية بروح

جعل البنا مجتمع التنظيم الصورة الوحيدة المقبولة لديه وفي نفوس أتباعه للمجتمع الإسلامي

الله وأخوة الإسلام من جديد، فهنيئاً لكم إن كنتم صادقين، وأرجو أن تكونوا كذلك، والله وليّ توفيقكم».

جعل البنا الصورة الوحيدة المقبولة لديه، وفي نفوس أتباعه، للمجتمع، أن يكون مجتمع التنظيم الذي ينتظم أفراده في تلك الصورة، أسر، ولكلّ أسرة نقيب، ولكلّ نقيب أسرة وهكذا، في تراتبية هرمية تحوّل المجتمع إلى تنظيم، وهو تصوّر يتجاهل تعقيدات العلاقات الاجتماعية والتباينات بين البشر، وكيف أنّهم، في النهاية، ليسوا أفراداً في جيش، يبقى الإنسان مدنياً بطبيعته، يجنح إلى الحرية والانطلاق والفكاك من القيود المنتظمة، التي تسم واقع الجيوش المفهوم في سياقه، كجهاز منضبط له وظيفة؛ هي الدفاع وتحقيق الأمن في مواجهة الأعداء.

أسقط البنا رابطة الأخوة في المجتمع المسلم، التي تنهض على التعارف والتفاهم والتكافل على مجتمع الإخوان، الذي جعله الفئة الممتازة القادرة على إعادة تجسيد الإسلام في الواقع، وهو إذ يناقش مواصفات تلك الإخوة والرابطة، يتحدث عن حقّ النصيحة، في إطار ما أسماه الركن الثاني، وهو التفاهم، قائلاً: «وليحذر الناصح أن يتغير قلبه على أخيه المنصوح بمقدار شعرة، وليحذر أن يشعره بانتقاصه، أو بتفضيل نفسه عليه، لكنّه يتستر عليه شهراً كاملاً، ولا يخبر بما لاحظه أحداً إلا رئيس الأسرة وحده، إذا عجز عن الإصلاح، ثمّ ما يزال بعد ذلك على حبّه لأخيه وتقديره إياه ومودّته له، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وليحذر المنصوح من العناد والتصلب، وتغيّر القلب على أخيه الناصح قيد شعرة، فإنّ مرتبة الحبّ في الله هي أعلى المراتب، والنصيحة ركن الدين».

جزاء النصيحة

طبعاً، إنّ إسقاط هذا الكلام على حسن البنا نفسه ليس في صالحه، فلم يقبل الرجل، كشأن جماعته من بعده، نصيحة من قريب أو غريب، وظلّ هو، أو قيادة الإخوان، المصدر الوحيد للتوجيه والنصيحة والأمر، كتب البنا في مذكراته كيف أنه لا يثق في فرع المحمودية؛ لأنّه لم يبنَ على طريقته، وأنّه لا يثق في شيء إلا إذا صنعه بيديه وعلى طريقته، كما حافظت قيادات الإخوان على هذا التقليد، الذي جعل الجماعة في منعة من نصائح القريب والغريب، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

لم يقبل البنا نصيحة من أحد وظلّ هو وقيادة الإخوان بعده المصدر الوحيد للتوجيه والنصيحة والأمر

وقد كان سبيل مواجهة النصيحة من قبل الجماعة ولجانها الإلكترونية؛ توزيع الشتائم والإساءات على كلّ من تجرأ وقدم لها نصيحة، وعكس هذا السلوك إخلاص الجماعة لما كتبه حسن البنا وخالفه هو نفسه! وهو أمر مفهوم؛ فكثير مما كتبه البنا كان لاستلاب العقول والقلوب، ولم يعكس قناعة أو سلوكاً صادقاً لديه، أو لدى أفراد جماعته؛ فقد تسبب هذا الإطار الذي وضعه البنا في كوارث اجتماعية، وقفز على قواعد النصيحة في الإسلام، التي علمنا إيّاها رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم.

فالتنظيم يضع قواعده مدعياً أنّها قواعد الإسلام، ما جعل الإسلام كهنوتاً، من حقّه أن يجلس أعضاؤه خلف حائط الاعتراف، الذي تحتفظ فيه قيادات التنظيم بالعديد من الكراسي، في المسيحية؛ يعترف المسيحيّ المخطئ لكاهن واحد، بينما في الإخوان لن يعرف كم كاهناً حصل على اعترافه، دون أن يعطيه صكّ الغفران.

يجعل البنا قواعد هذا النظام؛ هي القواعد التي سينهض عليها بناء الإسلام، وليس بناء الإخوان، فيقول بعد أن يعدّد واجبات العضو: «فإذا أديتم هذه الواجبات؛ الفردية والاجتماعية والمالية، فإنّ أركان هذا النظام ستتحقق، ولا شكّ، وإذا قصّرتم فيها، فسيتضاءل حتى يموت، وفي موته أكبر خسارة لهذه الدعوة، وهي اليوم أمل الإسلام والمسلمين».

مناشط الأسرة

يمكن تخيل هذا النظام الذي دعا إليه البنا، الذي يخلق لهم مجتمعهم الموازي، هو أمل المسلمين، وقد كان هذا النظام فعالاً في بنيته في تعميق الفجوة بين الإخوان والمجتمع، ليس فقط لخطورة الفكرة التي تعيد صياغة العلائق البشرية، ليكون أساسها الجندية في التنظيم، وتنفيذ تعليمات القيادة؛ بل انخراط هؤلاء الأعضاء في أنشطة مشتركة، تحقق حالة من حالات الاندماج والتجانس، والمودّة الشديدة بين أعضائه، وهو ما تصنعه مناشط الأسرة في برنامج حدّد ملامحه فيما يأتي:

١- يعرض كلّ أخٍ مشكلاته، ويشاركه إخوانه في دراسة حلول لها، في جوّ من صدق الإخوة وإخلاص التوجه إلى الله، وفي ذلك توطيد الثقة وتوثيق للرابطة (الأهم طبعاً؛ أن يصبح الأخ عارياً تماماً أمام التنظيم، عيوبه ومشكلاته، بالتالي؛ يصبح أسيراً لهذا التنظيم،

مجتمع الإخوان الموازي فشل في التطبيع مع المجتمعات رغم كلّ مساحيق التجميل التي لم تخفِ وجه الجماعة

الـذي حـلّ مشـكلاته، وأصبـح مسـتودع أسراره، يسـتبدل الأخ الرابطـة العائليـة برابطـة التنظيـم، وشـيئاً فشـيئاً؛ يزيـد اغترابـه عـن أسرتـه، بينمـا يزيـد التصاقـه بالتنظيـم، الـذي أصبـح أسرتـه الأقـرب).

٢- مذاكـرة شـؤون الإسـلام وتـلاوة الرسـائل، والتوجيهـات الـواردة مـن القيـادة العامـة لـلأسر (تأمّـل كلمـة القيـادة العامـة لـلأسر)، ولا محـلّ في الأسرة للجـدل، أو الحـدّة، أو رفـع الصوت فذلك حـرام في فقـه الأسرة، لكنـه بيـان واسـتيضاح في حـدود الأدب الكامـل.

٣- يعـدّد البنـا وسـائل تعزيـز الرابطـة بـين الأعضـاء، متحدثـاً عـن رحـلات مشـتركة، جبليـة وصحراويـة وخلافـه، ومبيـت الإخـوان مـع بعضهـم، مـرة كلّ أسـبوع، أو أسـبوعين، وهكـذا.

بهـذه الطريقـة يبـني الإخـوان مجتمعهـم الموازي، الـذي لـم ينجـح أبـداً في التطبيـع مـع المجتمعـات، رغـم كلّ مساحيق التجميـل، الـتي لـم تخـفِ وجـه الجماعـة وأهدافهـا.

39

ترويج الأوهام لاستلاب العقول

جرياً على نهج الازدواج لدى جماعة الإخوان المسلمين في المنطق والخطاب، لا يكاد الباحث يعدم الإشارات الدالة لدى الجماعة، في الحضّ على شيء ونقيضه في الوقت ذاته، في هذا السياق؛ تبرز بعض مقولات الجماعة التأسيسية التي تصنع أفكار أعضائها، ولعلّ رسالة التعاليم من أكثر الرسائل تأثيراً في مفاهيم الجماعة، حتى اليوم، بما أسماه حسن البنا «الأصول العشرين لركن الفهم»، أحد أركان البيعة العشرة لديه، التي يقسم الأعضاء على احترامها والعمل بها ما أمكن.

ساهم عامل الأساطير والأوهام في بقاء التنظيم فضلاً عن المظلومية وأخطاء الحكومات في مواجهته

أوهام تحرير العقل

في أحد هذه الأصول، يقول البنا بوضوح، في الركن الثامن عشر: «والإسلام يحرّر العقل، ويحثّ على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحّب بالصالح النافع من كلّ شيء، والحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ الناس بها».

يبدو النصّ قاطعاً في إعطاء مكانة عظيمة للعقل، وتحريره من الأساطير والأوهام، تحت أيّ مسمّى، كما يبدو محتفياً بإنجازات العلم في كافة المجالات، يحثّ الأعضاء على تحرير هذا العقل من الأساطير والخرافات، وتعويده على التأمّل والتفكير، محتفياً بالعلم والعلماء؛ فهل كان انعكس ذلك على واقع الإخوان فعلاً؟

المدقق في أدبيات الجماعة نفسها، يجد أصلاً آخر من أصول الفهم، يبدو أنّ البنا وضعه عامداً، كي يفتح الطريق أمامه لتحييد عقول الأعضاء، لتحتل الأسطورة مكان العقل والمنطق، في تسييرهم وإقناعهم بكل ما يخالف مقتضيات العقل والمنطق.

مَن يتابع كلّ محن الجماعة والمشاهد المتكررة من الفشل، يندهش كيف استطاع الإخوان الحفاظ على وجودهم كل تلك الأعوام! لكن يبدو أن ما ساهم في بقاء التنظيم، فضلاً عن المظلومية وأخطاء الحكومات في مواجهة الجماعة، يأتي عامل الأساطير، أو الأوهام التي تسلّلت إلى عقول وعواطف الأعضاء، عبر بعض القيادات، بدءاً من حسن البنا وحتى اليوم.

يقول البنا في رسالة «التعاليم»، في الأصل الثالث من أركان الفهم: «وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة، يقذفها الله في قلب مَن يشاء من عباده، لكنّ الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعدّ كذلك إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه».

تأمّلُ هذا النصّ جيداً يقود إلى أنّه يبدأ بمُسلّمة صحيحة: أنّ من ثمرات الإيمان الصادق والعبادة الصحيحة، أن يشعر المؤمن بحلاوة الإيمان، التي تعني نوعاً من الطمأنينة أو السعادة الداخلية، لكنه يلفت مباشرة إلى أمر أخطر يريده البنا من هذا الأصل؛ هو أنّ الإلهام والخواطر والكشف، وهو مصطلح صوفيّ، يعني أن يكشف الله لك الحجب، فترى ما لا يراه الناس من غيب، صحيح أنّها

يتداول الإخوان حكايات منافية للعقل عن البنا وقيادات الجماعة ترفعهم إلى مرتبة الولاية

ليست من أدلة الأحكام الشرعية، بمعنى أنّها لن تحلّل حراماً ولن تحرّم حلالاً، الأمر الذي يبقى من عمل النصوص قطعية الثبوت والدلالة، لكنّه يطرح، في المقابل، سياقاً آخر تتحول فيه الرؤى والأحلام والكشف إلى أدلة معتبرة، باعثة على بعض الخيارات في حركة الجماعة السياسية وتسييرها للأعضاء.

النصّ، قرآناً وسنّة، لم يتعرض لشكل الحياة السياسية أو الخيارات أو الثورة، أو استخدام العنف في العملية السياسية، أو شكل الدولة، ومن ثم تصبح خيارات القيادة التي تتوسّل بالرؤى والأحلام الطريق لتقديس القيادة، واعتبارها ملهمة، لا يأتيها الباطل من يديها أو خلفها، كما في وصف التلمساني للبنا بالملهم الموهوب، وكيف كان يقول إنّه بين يديه كالميت بين يديّ مغسّله، معتبراً أنّ هذا هو السياق الصحيح للعلاقة بين العضو والقيادة.

إلهام وموهبة هي القيادة، وبالتالي هي مؤهلة لأن تأمر الأعضاء بأي شيء متوسّلة بالرؤى، التي هي رؤى الصالحين، التي ليست من أدلة الأحكام الشرعية، لكنها في مساحات الحياة الواسعة ستصنع القرار حتى لو خالفت العقل والمنطق.

رؤى عجيبة بالجملة!

يحكي بعض قدامى الإخوان؛ أنّ أحد قيادات الجماعة كان متزوجاً من سيدة لا تنجب، وهمّ بطلاقها، فذهب ليستشير حسن البنا، فقابله على سلّم مكتب الإرشاد، وقبل أن ينطق الرجل بشيء، بادره البنا قائلاً: «يا حسن، أمسك عليك زوجك»، فالتقط الرجل الإشارة الربانية التي حملها منطق البنا، وأمسك زوجته، فلم يطلّقها، فأنجبت له غلاماً بعدها!

يروي الرجل الحكاية، وتتداولها ألسنة الإخوان، كي تحوّل القيادة إلى شخصية مقدّسة، لا يوحَى إليها نعم، لكنّها موصولة بالله، لها مرتبة الولاية، ومن ثمّ فهي ترزق بالكشف والرؤى والأحلام.

هذا الأمر أحد ميكانزمات الجماعة في الحفاظ على التماسك التنظيمي في المفاصل الأهم من تاريخها، فحين تتواتر أدلة الواقع لترشد الجماعة إلى طريق لا تريده القيادة، تتكفل الرؤى والأحلام بإقناعهم بطريق آخر.

يروي أحد سجناء الإخوان؛ أنّ سجيناً من جماعته كان يؤدّي خطبة الجمعة للمصلّين

لم ترتدع الجماعة عن عدم احترام العقول كما أثبت اعتصام رابعة الذي حفل بالوعود والرؤى العجيبة

من زملائه الإخوان، وعطف في خطبته على قصة سراقة بن مالك؛ الذي خذله فرسه فتعثّر، وهو يطارد رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، في رحلة الهجرة، طمعاً في الجائزة المالية التي رصدتها قريش لذلك، ولما أيقن فشله، وعده الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، بسواري كسرى، إن عاد أدراجه، وتحقّق الوعد بعد أعوام في عهد عمر، رضي الله عنه؛ فقد فتح المسلمون بلاد فارس.

هنا عقّب الخطيب الإخواني قائلاً: «إني لو أخبرتكم، أيها الإخوان، أنّ الله سينصركم، وأنّكم ستحكمون أمريكا، وتدخلون البيت الأبيض، أكنتم مصدّقيّ؟ يردف صاحب الحكاية قائلاً: «رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، كان يتكلّم نقلاً عن ربّه الذي أوحى إليه ذلك الأمر، ومن ثمّ كان تصديق النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، من علامات الإيمان، وكان الشكّ في وعده من علامات النفاق، فما الذي يملكه الخطيب الإخوانيّ، حتى يعد الناس بذلك الوعد! هل يوحى إليه مثلاً، من أين يستمد هذه الثقة في تمكّن الإخوان من حكم أمريكا، من الذي علّمه هذه الجرأة العجيبة على هذا الهذيان، شتّان بين وعد نبيّ كريم يوحى إليه، وشخص لا وزن له اعتاد تكرار ترّهات جماعة أبرمت مع الفشل عقداً أبدياً».

انتهى هذا الاقتباس عن العضو السابق بالجماعة، عمرو عبد الحافظ، وهو أحد الشباب الذين يحاولون تقديم مراجعات جادة وصادقة لأفكار جماعة لم تراجع نفسها أبداً، ولم ترتدع عن هذه السلوكيات التي لا تحترم العقول كما أثبت مسرح اعتصام رابعة العدوية، الذي حفل بأمثال هذه الوعود من الأوهام والأساطير.

ومن قبيل هذه الحكايات العجيبة ما قصّه أستاذ التاريخ الإسلامي، د.جمال عبد الهادي، عن أنّ بعضاً من الإخوان رأوا في المنام الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، وحين قاموا ليصلّوا خلفه إماماً، قال لهم: بل قدّموا الرئيس محمد مرسي ليكون إماماً، بكل هذه البساطة تقول هذه «الرؤيا الصادقة» إنّ خاتم النبيين الذي أمّهم في الصلاة في المسجد الأقصى، في رحلة الإسراء والمعراج، يقدّم محمد مرسي للإمامة!!

رؤية أخرى تحدّث فيها عبد الهادي ليبشر الإخوان بأنّ هذه الأزمة ستنتهي لصالحهم، يتحدث فيها عن حالة صعبة، كاد يهلك فيها الناس والأنعام من الجوع والعطش، فخرجت ساقية ضخمة من الأرض، طولها عشرة أمتار، تقلّب الأرض وتنبت الماء والزرع،

وانطلق صوت يقول: «ارعوا إبل الرئيس محمد مرسي»، ثمّ حثّ الناس على أن يبلّغوا تلك الرؤيا للرئيس، ليبشّروه بقرب النصر!

لا تكاد جعبة الإخوان تنتهي؛ فهذا عضو آخر يروي رؤية أخرى، عن أنّ النبيّ، صلّى الله عليه وسّلم، نام على رجليه، وأنّه قام ليحرس الرئيس مرسي؛ الذي كان برفقتهم، فقال له مرسي: «الله حافظنا»، ليردّد الجمهور معه العبارة، وتطمئن نفوسهم لتلك الهاوية التي انحدروا إليها، بفعل سلطان الأسطورة التي نسجتها القيادات عن نصر الله القريب، البشريات التي تتوسّل بالأحلام، متنكرة لحقائق الواقع، والتي تنتحل فيها القيادات صفة الأولياء الذين يتلقون عن الله، عز وجل.

تحتلّ الأسطورة مكانها الراسخ في عقول الأعضاء، وهي تكنيك قديم ومكرّر، لجأ إليه البنا وعلمه للقيادات من بعده، وما يزال يحدث أثره فيما تبقى من عناصر الجماعة، الذين ما يزالون مخلصين له، ضاربين عرض الحائط بالأصل الثامن عشر، عن تحرير الإسلام للعقل، وليس اعتقاله خلف الأساطير والأوهام، كما فعل البنا وفعلت الجماعة من بعده.

40

كيف استخفّت الجماعة بفكرة الدولة والحزبية والدستور؟

منذ بروز جماعة الإخوان في المشهد المصري كلاعب سياسي في العام ١٩٨٤، وحضورها اللافت في مناشط نقابية وجامعية، ثم دخول بعض مرشحيها للبرلمان وتحالفها مع غريمها التاريخي حزب الوفد، ثم حزب العمل الاشتراكي من بعدها، نجح التنظيم في تحسين صورته الذهنية في المجتمع المصري، مستفيداً من المظلومية التي روّجها عن الحقبة الناصرية، كما استفاد ببراغماتية معهودة من حالة التعبئة ضد جماعات العنف، التي أقدمت على قتل الرئيس السادات، فضلاً عن جملة المتغيرات الإقليمية والدولية التي ضربت المنطقة والعالم في هذه المرحلة، وفي هذا السياق نسي الكثيرون حقيقة الجماعة وطبيعة أفكارها المعادية للدولة الوطنية، وفي القلب من ذلك موقف الجماعة الحقيقي من القانون والدستور.

نجح التنظيم بتحسين صورته الذهنية في المجتمع المصري مستفيداً من المظلومية التي روّجها عن الحقبة الناصرية

أدرك حسن البنا مبكراً أن محاولة طرح صيغة دولة الخلافة، أو الدولة الإسلامية التي تتغذى على التجربة التاريخية والفقه السلطاني، وتستعيد نفس شكل الخلافة القديم أمر غير قابل للتحقق أو التمرير، ومن ثم حاول أن يقدم قراءة مراوغة كشأن كل كتاباته، تستبطن صورة هذه الدولة القديمة لكنها تبهر الأبصار بأضواء الدولة المدنية الحديثة.

ناور البنا عبر الادعاء بإيمانه بأن «القواعد الأساسية التي قام عليها الدستور المصري لا تتنافى مع قواعد الإسلام، وليست بعيدة عن النظام الإسلامي ولا غريبة عنه، بل إن واضعي الدستور المصري رغم أنّهم وضعوه على أحدث المبادئ والآراء الدستورية وأرقاها، فقد توخوا ألا يصطدم أي نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية».

ويحاجج من قدموا أفكار البنا باعتبارها تمثل الفكر السياسي للرجل ولجماعته، بأن تصوراته فيما يتعلق بممارسة السلطة في الدولة الإسلامية تضمنت ما يلي:

الإيمان بوحدة السلطة؛ فلا توجد سلطة مدنية وأخرى دينية؛ وذلك لقناعته بأن سلطة الحاكم في الدولة الإسلامية لا تشبه في مفهومها السلطة الدينية الثيوقراطية التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى.

ويرد على ذلك موقف الجماعة الفعلي، عندما استشرفت، وإن شئنا الدقة عندما اتفقت مع الجانب الأمريكي منذ وقت مبكر في أوائل الألفية الجديدة، على أن يكونوا هم البديل الآمن لنظام الحكم المصري، فقدموا في العام ٢٠٠٤ ما سُمي بمبادرة الإصلاح السياسي التي كانت أساس برنامج حزبهم فيما بعد، والتي أكدت أنهم لا يؤمنون بسلطة مدنية، بل يعتبرون أن هذه السلطة بحاجة الى سلطة دينية تمارس الوصاية عليها والتوجيه، من خلال هيئة دينية أعلى من المحكمة الدستورية العليا التي تمثل المرجعية الأعلى في دولة مدنية تقوم على القانون والدستور.

الأمر الذى تأكد لاحقاً عندما وصلت الجماعة بعد ثورة ٢٥ يناير إلى أعلى درجات الصعود السياسي والأغلبية البرلمانية، التي مكنتها من صياغة دستور «ولاية الفقيه» كما أسماه البعض وقتها، باعتباره يكرس لدولة ولاية الفقيه السنية، على غرار النموذج الشيعي الإيراني، والتي يدير مقدراتها رجال الدين بشكل أسوأ مما عرفته أوروبا في العصور الوسطى.

قدم البنا قراءة مراوغة تستبطن صورة الدولة الدينية وفق رؤيته في سياق الدولة المدنية الحديثة

وليس أدل على عدم قناعة الإخوان بمفاهيم وشكل الدولة المدنية وبناها، من مشهد رئيس حزب الحرية والعدالة الذي كان يستعد للترشح لمنصب رئيس الجمهورية، ومرشد الجماعة يحله من بيعته لكي يتمكن من مباشرة دوره الجديد، لم يصرف هذا المشهد وعي الشارع المصري أن يهتف بسقوط المرشد في ٣٠ حزيران (يونيو) ٢٠١٣ وليس بسقوط الرئيس مرسى.

كان الشارع مدركاً تلك الحقيقة التي لم يدركها كثيرون، من أن من يحكم مصر هي هيئة كهنوتية دينية تسمى مكتب الإرشاد والمرشد العام، وليس محمد مرسي وحزبه أو حكومات حتى الحزب الذي، بالمناسبة كان مجرد كيان هامشي وشكلي تديره لجان الجماعة، إلى حد أن البعض تندّر على الحزب ووصفه بأحد أقسام لجنة نشر الدعوة بالجماعة، إلى هذا الحد استخفت الجماعة بفكرة الدولة والحزبية والدستور.

لذلك لم يكن البند الثاني لما اعتبره البعض دليلاً على إيمان الإخوان بالحكم الدستوري، والذي يدعي القبول بصيغة الحكم الدستوري النيابي واعتبره الأقرب إلى الإسلام، باعتباره يضمن تحقيق المبادئ الثلاثة التي يقوم عليها نظام الحكم الإسلامي، وهي: مسؤولية الحاكم ووحدة الأمة واحترام إرادتها.

فلم يكن عملياً سوى ذر للرماد في العيون، فلم يحترم الإخوان تلك المبادئ التي ادعوا الدفاع عنها، فلم تكن مسؤولية الحاكم في عهدهم القصير تجاه الأمة، بل كانت تجاه الجماعة التي قيل عن بعض ملامح تغول سلطتها أن الإعلان الدستوري الذي حصّن قرارات الرئيس المرتقبة من أي طعن أمام أي جهة، قد صدر من مكتب الإرشاد وتسلمه المتحدث باسم الرئيس مرسي وأذاعه، ليتابعه مرسي شأنه شأن كل الناس ودون أن يعرض عليه حتى، كان مرسي يتصرف بوصفه الأمين على مشروع الجماعة، وليس على مقدرات الشعب المصري الذى يجهل بنظرها الإسلام ومعنى الدولة وفقه.

ولأن المجتمع جاهل بالإسلام، كما يعتقد حسن البنا وتعتقد جماعته، فلم تكن تؤمن كما ادعت في فكرها السياسي «الإقرار بضرورة وجود معارضة سياسية في ظل النظام الإسلامي، وفي الوقت ذاته تأكيد اختلاف وظيفتها وتباين أهدافها التي تسعى إلى تحقيقها، عن وظيفة وأهداف المعارضة

ليس أدل على عدم قناعة الإخوان بمفاهيم الدولة المدنية من مشهد المرشد وهو يحلّ مرسي من بيعته

في ظل الديمقراطية المعروفة في الغرب، وألا يكون الوصول الى السلطة هدفاً من أهداف المعارضة في النظام الإسلامي، إلا في حالة واحدة فقط؛ وهي أن تفقد السلطة القائمة شرعيتها». يظهر هذا النص أن الإخوان كانوا يعتقدون أن دور المعارضة أن تقبع في المساجد، لتلهج بالدعاء لله أن يوفق سلطة الإخوان بوصفها تحكم باسم الله وتتوخى تحقيق مفهومها عن الشريعة!

بقيت الجماعة تحتقر المعارضة وتعتبرها خيانة وشوكة في خاصرة الدولة، وطابوراً خامساً موالياً للغرب الذي لم تعادِه أبداً كما ادعت، بل ظلت أمينة على تحقيق أهدافه في تفريق الأمة وتهديد وحدتها، عبر أطروحات الدولة الدينية التي تميز بين مواطنيها، ليس على المعتقد الديني فحسب، بل على المعتقد السياسي أيضاً.

لا يمكن الحديث عن تصور الجماعة للعلاقة مع الدولة المدنية والقانون والدستور فقط بمناقشة أفكار البنا، دون الحديث عن الشطر الثاني الأبرز والأعمق تأثيراً، وهو أفكار سيد قطب؛ الذي يعد صاحب النموذج التوحيدي لمفهوم الحاكمية تأثراً بالمودودي، لكنه ذهب أبعد بالطبع حيث طور الأبعاد العقدية والتوحيدية في المفهوم، بحيث طغت على غيرها من الأبعاد التي يتضمنها.

قدم قطب الحاكمية أو الحاكمية العليا، كما يسميها في إطار معاني الألوهية، وتبعاً لذلك فإن مفهومه عنها أنها نزع السلطان الذي يزاوله الكهنة ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ورده إلى الله، السلطان على الضمائر والعشائر، على واقعيات الحياة والمال والقضاء، والسلطان في الأرواح والأبدان.

ويلاحظ بعض الباحثين أنه لا خلاف ولا تمايز في فكرة الحاكمية بين المودودي وقطب في الحقيقة والجوهر؛ إذ إنّ صياغة قطب ترجع في أصلها الى المعاني نفسها التي أسسها المودودي، بالرغم من أنّ الأخير طرح فكرته في إطار مشروع تأسيس دولة باكستان الإسلامية وصوغ دستورها، أما قطب فطرح فكرته في إطار مواجهة ما يسميه بالجاهلية المعاصرة التي كانت تعني لديه الدولة الوطنية في مصر.

أوجد المودودي رابطة عضوية بين الحاكمية القانونية والحاكمية السياسية، دون أن يسقط مجال الاجتهاد الإنساني في التشريع، الذي يبقى مقيداً بتصوره عن الحاكمية.

بقيت الجماعة تحتقر المعارضة وتعتبرها خيانة وشوكة في خاصرة الدولة

تحت وقع هذه المفاهيم والمعاني تشكلت الرؤية السياسية للإخوان، وهي رؤية مأزومة مرتبكة تلفيقية لا تنتمى لتربة بعينها، منزوعة من سياقات بعيدة عن مصر والعالم الإسلامي، لكنها شكلت تصور الإخوان للدولة والقانون والدستور، وشكل النظام السياسي الذى لم يعد الشكل البرلماني هو الأقرب له، كما كان اعتقد أو كتب البنا، بل سعى الإخوان للنزوع نحو صلاحيات النظام الرئاسي، الأمر الذي فعله أيضاً بعد ذلك بعقود رجب طيب أردوغان، الذى أسس لنظام رئاسي يحتفظ فيه بكل الصلاحيات، مؤكداً أن وعي كل الإسلاميين مسكون بالاستبداد حتى لو ادعوا طوال الوقت الإيمان بقيم الديمقراطية والشورى.